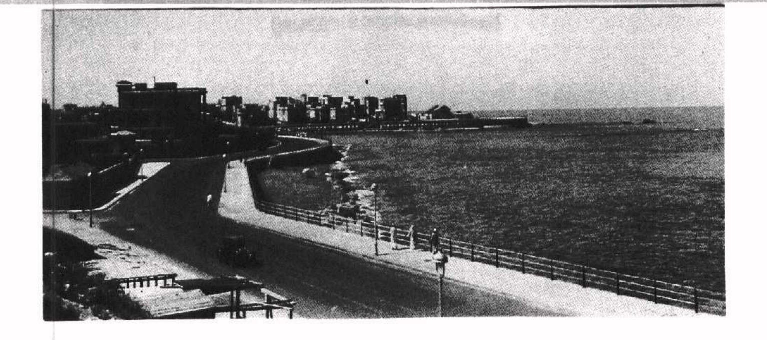


الإسكندريه ..
ذكريات مدينه لا تنسى

عرفه عبده على

تقديم الكاتب الكبير

كامل زهيرى



رسالة حب ..

إلى عروس البحر الجميله..

وإلى كل من ساهم فى خلودها..

فى ذاكرة التاريخ..!



تقديم :

شىء واحدلا يستطيع الانسان ان يوقفه هو الزمن .. وكلما عدت الى الاسكندريه كأننى لم أغادرها ! .. انها الألفه القديمه وهى أقوى من الحب ، لإن الحب قد ينتهى ويطويه الزمن ، والألفه هى التى تستمر ، ولعلنى اصبحت الآن احمل جزءا من الاسكندريه معى اينما ذهبت ، فعلى كثرة أسفارى وعشقى للسفر بين العواصم والمدن العديده لم تنطبع مدينه فى ذاكرتى وذكرياتى مثلما انطبعت الاسكندريه ، وبعض الذكريات كأنها موج الأثير الخفى قد يمحو بعضها بعضا ولكن بعضها يبقى لإنه اقوى لا يبارحنى ولا ابارحه ..

وقد يكون السبب ان ذاكرتى فى الأصل بصريه ، وبهذه الذاكره البصريه لا أكاد انسى مكانا زرته او وجها جميلا رأيته ،وقد يكون ذلك سبب شغفى ايضا بالعماره وهو لا يقل عن حبى للطبيعه ! .. ودائما اهرب فى الصيف من حرارة القاهره الى الاسكندريه التى عشقت شوارعها القديمه ومبانيها العريقه منذ مطلع القرن العشرين ... تتغافل عن هجوم ناطحات الاسمنت التى امتدت على الكورنيش وكأنها حائط حربى لمنع البحر وصد الهواء عن المدينه الجميله !

ترتسم ذكريات البدايه كلوحات فنيه على شراع مركب .. وتنام عروس البحر على شراع مركب آخر .. وحيث وقف الاسكندر الاكبر يسرد حكاية اكتشافه لقرية " راكودا " عند " بحرى " وكيف ان الحلم داعبه والهمسه من وسط البحر لتأسيس الاسكندريه .. فكانت الاسكندريه الينبوع الذى نشر ثرواته وحضارته فى البحر الابيض وحتى بعد ان تحول مصدر الثقل السياسى الى روما ، ظلت للاسكندريه مكانتها الرفيعه كمنارة للثقافه والفكر ، ولا يذكر اسم الاسكندريه الا ونتذكر مكتبتها القديمه التى كانت مركزا للاشعاع الثقافى .

ولم يكن حاضر الاسكندريه بأقل شهره من ماضيها ، فهى المدينه التى أخرجت فنانين عباقره مثل محمود سعيد و محمد ناجى و سيف وأدهم وانلى .. وهى المدينه التى ولد بها توفيق الحكيم وسيد درويش وبيرم التونسى والشيخ سلامه حجازى وغيرهم .... عاشوا فيها وتأثروا بها وأحبوها وخلدوا مناظرها وبناتها وصياديها وصارت لوحاتهم وأشعارهم وموسيقاهم تسجيلا واقعيا لهذه المدينه العظيمه .. أيضا تأثر بالاسكندريه وخلدها أدباء وشعراء أجانب أشهرهم كفافى و فورستر و داريل فى رباعيته الأشهر .. واناتول فرانس فى روايته الشهيره " تاييس " ... واذا كانت منارة الاسكندريه قد اصبحت رمزا للثغر المطل على أعرق بحار الدنيا فإن الفنان محمود سعيد استطاع ان يجعل من " بنت البلد " شعارا حيا ينافس المناره العتيده !...

والاسكندريه .. هى عاصمة مصر الفنيه .. والسبب هو البحر أى الحريه .. وهى ككل العواصم الثانيه أخف ظلا لإنها تبتعد عن القيود الرسميه والضبط والربط !.. والاسكندريه مدينه ينظفها البحر كل يوم وهى امتع مكان يمكن ان يعيش فيه فنان تشكيلى .. وسيف وانلى فنان مصرى عالمى ، سكندرى المولد والمزاج وهو عاشق محترف لكل المدن .. كنت أتمشى معه على شاطىء النيل فتوقف فجأه أمام الشجر المزدهر فى الربيع . وأخذ يتمتم ، وهو يحرك يده ، كانه يرسم فى الهواء ، فيد الرسام مربوطه بعينه .. تماما كيد الموسيقار العازف مربوطه بأذنه ! وكثيرا ما اختلفنا معا على محمود سعيد فنان الاسكندريه ، القاضى الارستقراطي . فانا من عشاقه القدامى .

وتصويره للمرأه المصريه والنوبيه والزنجيه يأسرني . ولكن سيف وانلي يعتقد ان محمود سعيد كلاسيكي جدا ، وأنا اعتقد ان اكتشاف محمود سعيد للملامح المصريه والعيون العميقه والشفاه الغليظه مثل اكتشاف سيد درويش للايقاع المصري . ومحمود سعيد من اجمل واروع من صوروا الجسد بحب وصوفيه ! وقد اغرق في فنه . وغرق فيه . لانه هجر القضاء واتبع هواه الفني ! وقد يكون اعجابي بحياته ايضا لانه انتقل من قصور الباشوات الى شواطىء الاسكندريه وشوارعها وحواريها وبحرها ومساجدها ودراويشها . ولكن سيف وانلي لون آخر . وهو لذلك يختلف عن محمود سعيد . ويختلف معه . ولولا هذا الاختلاف لما صار سيف وانلي فنانا مبتكرا .

وينحدر الفنان محمود سعيد من عائله ارستقراطيه قديمه بالاسكندريه ، وكان أبوه محمد باشا سعيد أحد رؤساء الوزاره المصريه في العشرينات . والفنان محمود سعيد هو ايضا خال الملكه السابقه فريده الزوجه الأولى للملك فاروق ، ولعلها ورثت منه هواية الفن وموهبة الرسم . وكان الرسام محمود سعيد ، سليل العائله الارستقراطيه ، قاضيا بالمحاكم المختلطه ، ثم استقال في الخمسين من عمره ليتفرغ تماما لهوايته التي أخذت عليه كل حياته . وأصبح هذا الارستقراطي العريق أشهر رسام للحياه الشعبيه . وأجمل صور في لوحاته الشهيره المرأه بنت البلد ، خصوصا بنات بحري . وقد أشتهر بيننا في الحديث الشعبي عن المرأه الاسكندرانيه أنها اكثر تحررا وجرأه من القاهريه بنت البلد ، وقد يكون السبب هو البحر والهواء الطلق . وكنا نسمع في شبابنا هذه العباره الدارجه في وصف " بنات بحري " : مياه مالحه ، وذيول شالحه ، وعيون جارحه !

وقد سعيت الى لقاء محمود سعيد في بيته بشارع محمد باشا سعيد بالاسكندريه ، وقابلني في غرفه اشتقبال الضيوف بالدور الأرضي ودودا ومتحفظا . واشتبك حديثنا عن الرسم والشعر بكتاب الفنان الشاعر عبد الرحمن صدقي عن الشاعر بودلير ، وكان عنوانه " الشاعر الرجيم " . وقال محمود سعيد انه أجمل ما قرأ لشاعر عن شاعر . وكان هذا الكتاب أيضا من اجمل الكتب التي قرأتها ، وأحسست بأن بودلير هو كلمة السر بيننا ، فقد انفتح لي قلبه ، وطلب مني الصعود الى السطح حيث مرسمه الذي يطل على البحر .

وأمضيت أياما مع محمود سعيد في مرسمه ، واكتشفت انه يختار بعض عناوين قصائد بودلير لأسماء لوحاته ، وقادني بودلير الى عالم محمود سعيد الداخلي ، فقد كان محمود سعيد يشبه شاعره المفضل بودلير في حب المرأه وكان يشمها عابقه عطرا نفاذا وفواحا ، كما يراها بعينه الفنيه المتفحصه .وكانيطرب لوسوسة أساورها ووقع أقدامها ، ولذلك تغنى الرسام والشاعر بالمرأه شوقا وشبقا !..

وكما تغزل الشاعر بالمرأه بكلماته الموسيقيه تغزل الرسام بصورة المرأه في خطوطه وألوانه ، وأصبحت المرأه هي موضوعه المفضل .

وقد رسم محمود سعيد زوجته الجميله ثلاث مرات فى ألبسه محتلفه وأقنعه منوعه . ومره ألبسها ثيابا اسبانيه بشالها الحريرى ، ومره بقبعه من القش الايطالى ، ومره سيده لؤلؤيه مرمريه . ورسم الرسام أمه بتعبير حزين جليل ، ورسم حماته سيدة مجتمع لا تعترف بالغضون والسن ، وأنوثتها الناطقه بإرادتها المطلقه ،كما رسم ابنة أخته فريده التى اصبحت بعد ذلك ملكه ثم رسامه .

ومن دائرة العائله انتقل محمود سعيد الى المجتمع ، والىشاطىء البحر ، والأسواق الشعبيه ، فكانت روائعه النادره ، وعلى رأسها لوحة بنات بحرى الضخمه بالملايات اللف ، ولوحة هاجر ، والزنجيه ذات الأساور والخلاخيل ، وذات الجدائل الذهبيه ، وفاطمه ، والمستحمات ، والعائله ، والمدينه ، وعلى الاريكه الخضراء والملايه اللف ، وعروس البحر ، وذات الثوب الوردى ، وذات الرداء الأزرق ، وحاملة الجره .. وغيرها كثيرات .

وتصوير المرأه عند اى رسام موهوب لا يكون نقلا ونقشا لملامحها ولفتاتها وجلستها كما تنقلها المرآه او تصورها الكاميرا ، فلابد للفنان الموهوب من الشوق والشغف . وقد كان رسامنا محمود سعيد رشيقا ، وكان أقدر رسامى المرأه فى التقاط معنى النظره والجلسه واللفته والبسمه !

ولا يمكننى ان اذكر الاسكندريه بدون ان اتذكر " كليوباترا " .. جميلة الجميلات .. ملكة الملكات .. والتى سيبقى اسمها خالدا لأن مأساتها كانت خالده وحياتها ايضا ، وقد ظلت مقرره على أغلب أدباء وشعراء وموسيقى العالم .. كتب عنها شوقى أعظم مسرحياته " مصرع كليوباترا " وكتب عنها شكسبير أروع أعماله " أنطونيو وكليوباترا " و كورنى الشاعر الفرنسى مسرحيته " كليوباترا الأسيره " وبوشكين الشاعر الروسى فى مسرحيته "ليال مصريه " .

واذكر فى مايو ١٩٩٨ أن قدمت القناه الخامسه الدوليه فى التليفزيون الفرنسى برنامجا رائعا عن الاسكندريه ، قدم المذيع الفرنسى الأشهر " فردريك ميتران " شقيق الرئيس السابق " فرانسوا ميتران " فى برنامجه " دائرة الفنون " بمناسبة افتتاح معرض " مجد الاسكندريه " بقصر ال " بتى باليه " .. وقد حشد له عشرة من الادباء والفنانين وعلماء الآثار والمؤرخين والمصورين ، عرض فيه لتاريخ وحضارة الاسكندريه واتسعت ندوة ميتران للاسكندريه أرضا وبحرا ومن سطحها الى قلبها لإن الاسكندريه مدينتان وكلما حفر علماء الاثار أرضها اكتشفوا كنوزا تاريخيه وحتى البحر قرب الشاطىء بقايا أثار رومانيه بطلميه ، وكان الحديث عن الآثار الغارقه التى اختفت منذ ألفى عام وتتضمن الحديث بالطبع فنار الاسكندريه القديم واهتم ميتران بان يؤكد عن العرب لم يحرقوا مكتبة الاسكندريه القديمه وهو ما يصحح بعض الاخطاء الشائعه علميا وتاريخيا ... ومن الاسكندريه البطلميه الرومانيه الهيلينيه الى الاسكندريه فى بداية القرن العشربن عرض البرنامج صورا نادره لبيوت الاسكندريه للمصور " كاراوس فريتى " الذى قابلته فى باريس كان لابد من القاء بعض اشعار " كافافيس " الشاعر السكندرى الذى مزج بين الماضى والحاضر فى اشعاره ، وكتب اجمل الاشعار واصدقها ، وكان اقوى شاعر تحدث عن عاصمة العالم

القديم فى القرنين الثالث والرابع ميلاديين .. كان كفافى رائعا حين تحدث عن ابطال الماضى بلغة العصر فى حيرة حزينه لا تدرك سر انهيار الممالك .. لكنه كان يقول كما تقول الالياذه :

– ليس فألا طيبا على اى حال ان يكثر عدد القياصره !.. فحين ازداد عدد القياصره تبدأ الشمس فى المغيب !

وقد ولد كفافى فى الاسكندريه بشارع شريف عام ١٨٦٣ وعاش أغلب عمره فى الاسكندريه وتوفى بها عام ١٩٣٢ فى شارع ليبسيوس فى بيت كان يطل على حديقه ومستشفى ولازالت لوحه رخاميه على بيته تحمل اسمه ، وتفخر الاسكندريه بانها كانت موطنه ومولده ووحيه الذى جعله اعظم شعراء اليونان المعاصرين .. وهو الذى كان يقول دائما : الاسكندريه ليست مدينه ولكنها حضاره !

وبعض الكتب يبقى لأنها ذاكرة العالم . وتجربة الانسان وخلاصة الخبره تنتقل من جيل الى جيل .. فما بالك من انشاء مكتبة تضم ٤ ملايين كتاب .. وان تصبح هذه المكتبه مركزا للبحث والثقافه والفكر والفن والادب والتكنولوجيا .. وان تتصل بالمكتبات العالميه وتصبح مركزا دوليا للمعلومات .

ومع ان مكتبة الاسكندريه الجديده لن تكون الأضخم لكنها الأقدم والأحدث .. ويعلو بناؤها الجديد فى مكانها القديم والأمل ان تضم المكتبه ٤ ملايين كتاب ، ويسبقها فى العالم من ناحية العدد مكتبة الدوله فى موسكو وتضم ٣٠ مليون كتاب ، ثم مكتبة الكونجرس الأمريكى فى واشنطن وتضم ٢٢ مليون كتاب ، بعدهما المكتبه البريطانيه فى لندن وتضم ١٥ مليون كتاب ، ثم مكتبة أكاديمية العلوم فى لينجراد وبها ١٢ مليون كتاب ، ثم مكتبة جامعة هارفارد وبها ١١ مليون كتاب ، ثم المكتبه الوطنيه الفرنسيه فى باريس وفيها ١١ مليون كتاب ايضا ، ثم مكتبة طوكيو وبها ٨ ملايين كتاب ..

فاذا كانت مكتبة الاسكندريه هى الثامنه فى خريطة الثقافه والمكتبات فى العالم فإنها احدث مكتبه عصريه تحيى أقدم مكتبه فى العالم واختيار الاسكندريه بل نفس الموقع القديم يؤكد للعالم أن مصر تعطى كما تأخذ .

ومكتبة الاسكندريه الجديده القديمه تحيه لمصر ومنها واحياء للعقل ومشاركة فى حوار الثقافات وتأكيد لنهضتها الفكريه التى تتطلع الى المستقبل وتعود الى جذور الماضى ، ولكنها تستلهم من الماضى الجذوه المشتعله ولا تأخذ الرماد !

والباحث الجاد عرفه عبده على يتميز بسلاسة الأسلوب الأدبى الجميل المباشر ، عرفته من خلال مقالاته وأبحاثه – قبل أن التقى به- وأعجبت بشغفه الشديد فى البحث وإفادة القارئ ، أجتمع العلم والأدب فى كتاباته ، وعرفت فيه عشقه للقاهره ومعالمها وخططها ، كما عرفت أنه من محبى الفنون الجميلة وعشاق الرسم .. غير أنه كان "ضحية" كتاباته عن الفكر الصهيونى ومحاولات تهويد العقل المصرى وتاريخ اليهود فى مصر ، عندما أقيل من وظيفته بالمعهد الفرنسى بالقاهرة ووضعه على قائمة الموساد ... فكان فى ذلك " فائدة " .. تمثلت فى جهده البارز فى تأسيس مكتبة القاهرة الكبرى ، وتنفيذ مشروع الخريطة الثقافية للقاهرة ، وقد قرأت مخطوطة هذا الكتاب ، فأعجبنى ما كتبه عن الاسكندرية فى القرن التاسع عشر وأتسع الإعجاب ليشمل النصوص الأوروبية المختارة بدقة لتشكل بانوراما للاسكندرية فى عصرها الذهبى ، فجاء كتابه ممتعاً رائعاً وأعتقد أنه من أجمل ماكتب عن الاسكندرية.

كامل زهيرى

كامل زهيرى

تقديم :

" ان انشاء مدينة الاسكندريه ، ومكتبتها ، وجامعتها .. قد أربى فى ساحة الخلود على فتوحات الاسكندر الباهره .."

" نابليون بونابرت "

لم يقدر لواحده من عشرات المدن التى اسسها " الاسكندر الاكبر " فى ربوع امبراطوريته المترامية ، ان تشهد مثل ذلك المجد ، وتلك الشهره التى حظيت بها الاسكندريه .. المدينه الخالده .. عروس البحر .. وسيدة مدائن عصرها ... حتى أسماها اثينايوس " المدينه الذهبيه " .. موسوعه رائعه من الجمال ، يحيط بها الجلال ، وتحف بها العظمه ، وزادتها القوه مهابه ، حتى فاقت مدينة أثينا الخالده ، ومدن اليونان فى جنوب ايطاليا ، ومدن العالم الهيلانى فى الشرق القديم ...

واذا رحلنا الى الماضى بخيالنا ، سنرى كيف استطاع الفن ان يتغلب ويقهر الطبيعه ... وستتمثل لعيوننا عبقرية الاسكندر فى اختياره لشاطىء يابس مقفر ، ليكون قاعده لمدينه رائعه يجعل منها نهايه لفتوحاته وغزواته العالميه .. وسنشاهد كيف تبلورت وتألقت الفنون والعلوم على يد البطالمه ، وكيف استطاعوا ان يجمعوا وينشئوا اكبر مكتبه عرفها العالم القديم على الاطلاق ، والتى استغرق تدميرها سنوات طويله ، وكانت الاساس الذى قامت عليه جامعة الاسكندريه القديمه ، والتى جعلت من مدينتنا ـ طيلة سبعة قرون ـ ينبوعا للانسانيه المفعمه بالحيويه ، وخلية حياه ابداعيه مزدهره .. من آداب وفنون وأخلاقيات وفلسفات عاليه رفيعه .

وكان منارها الشهير ، ذو الطبقات الثلاث ، المشيد من الرخام الابيض ، يتألق صقاله فى وجه الضحى ، ويزهو ضوؤه فى غسق الدجى ، يدهش الوافدين فيهديهم الى موطن الفن والجمال .. ومصدر الهام العقل و اخصاب الفكر ، ثم يبعث بنوره عبر البحار ، فيملأ الدنيا بالعلم والمعرفه ..
وسيمتلكنا شعور جارف بمتعة المجد ورفعته ، عندما نتذكر أباطره عظام شكلوا أقدار شعوبهم : الاسكندر .. يوليوس قيصر .. اكتافيوس .. اغسطس .. كليوباترا .. ماركوس انطونيوس .. نابوليون بونابرت ..

ومؤسس الاسكندريه ، ذلك الفاتح العظيم ، والذى تسنم منزله فريده خاصه به ، ظل على مدى اكثر من ألفى عام ، تحاك القصص والاساطير حول اسمه ، وتغلغلت سيرته واعماله فى ملاحم البطوله الفذه فى مشارق الارض ومغاربها .. حتى اصبح اسطوره تروى وتتردد بتعاقب الاجيال والعصور .. ولم تقتصر عبقرية الاسكندر على جهوده وفتوحاته ، بل كان من - الناحيه الفكريه - سابقا لعصره ، بما أوتى من قوه البصيره وسعة الادراك ، وبما افاد من دراسات فى الفلسفه والحكمه والادب وعلوم الحيوان والنبات والفلك والجغرافيا فى مطلع حياته ، على يد " ارسطاطا ليس " استاذ جيله .. وكانت مقدرته كسياسى بارع ، وحاكم عظيم ، لا تقل عن مقدرته فى تحريك الجيوش وقيادة المعارك وتحقيق الانتصارات الباهره .

كان الاسكندر الاكبر يعتقد بتفوق الحضاره الاغريقيه على مثيلاتها من الحضارات المعاصره وعندما افتتح مدينة " صور " فى يوليو عام ٣٣٢ ق.م ، زحف الى مصر ، واستسلمت قوات " مازاكيس " والى مصر الفارسى ، لجيوش الاسكندر دون قتال .. ورحب المصريون بالقائد الفاتح ، وتوجوه ملكا على مصر ، فى معبد الإله " بتاح " بممفيس ..

وقضى الاسكندر فصل الشتاء فى ممفيس ، ثم ركب فرع النيل الغربى المعروف بالفرع الكانوبى متجها الى " واحة آمون " المعروفه اليوم بواحة سيوه .. وعند وصوله الى بحيرة مريوط ، ادرك قرية ساحليه صغيره - يسكنها نفر من صيادى الاسماك - تعرف باسم " راكوتيس " تقع على مسافة ٤٠ ميلا شمال نقراطيس ..
وقد اختار هذه البقعه ، لتأسيس المدينه التى نسبها الى اسمه ، قبل أن يرحل لزيارة معبد آمون .. وقدر لهذه المدينه الخالده أن تكون مركزا للحضاره الهلينيه ، يحقق غاية الاسكندر من اشعاع هذه الحضاره فى بلاد الشرق القديم .. و ان تكون قاعده بحريه تهىء له السيطره الفعليه على الساحل الشرقى للبحر المتوسط .. كما قدر لها ان تكون ثغرا مقدونيا يرث مدينة " صور " فيما بلغته من ازدهار تجارى .

ثم يرخى الظلام سدوله قرونا طويله ، على حاضرة البطالمه الكبرى ومدينة العلم والابداع والمركز التجارى العالمى ، وتفقد الكثير من عظمة الماضى ولا يتبقى منها سوى بعض آثار مجدها فى عصرها الذهبى ، وطوى الخمول والاهمال " المدينه الذهبيه " حتى استفاقت على يد - محمد على باشا - لتبدأ مرحله جديده فى تاريخها ..
وكان زائر الاسكندريه فى القرن الثامن عشر لا يكمنه أن يتخيل ان الاسكندريه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ستصبح مدينة عالميه تكاد تقترب من مكانتها فى سالف الزمان .

وشهدت المدينه ازدهارا هائلا فى عهد الخديو اسماعيل - الذى كان يحلم بحكم امبراطوريه عصريه على ضفاف النيل تمتد ما بين الاسكندريه والخرطوم - وتعرض لنا فى ذلك العصر ، مشهدا صاخبا فاقع الالوان لمدينه تجمع خليطا من الاجناس .. تجار ومغامرون وسائحون .. اوروبيون ، مصريون ، أتراك ، شوام ، أفارقه ، أمريكان .. يكتظ بهم الميناء وطرقات المدينه ، يتدفقون وينحسرون بلا انقطاع ، ولا يستقرون كالموج .

والصفحات التاليه هى صوره متعددة الجوانب ، متنوعة الدلالات ، عن خلود الاسكندريه فى ذاكرة التاريخ ، والتى كانت مركزا للقاء أعظم حضارتين : حضاره مصر القديمه وحضارة اليونان ..
هى مدينة الجمال والنبل والعظمه .. التى عاشت مناره للحضاره وتبوأت اسمى مكانه للفن والثقافه .. لم يتأثر بها المصريون فقط ، بل احبها وخلدها كتاب وادباء ورحاله وشعراء واجانب ...
واذا كان لكل مدينه شخصيتها وزمانها ، فان لمدينة الاسكندريه : أزمنه وشخصيات .. انها مدينه ذات " هويه خاصه " صنعت ازمنه وصنعت حضاره وفيها انصهرت ثقافات ، وبداخلها تفاعلت حضارات ... وبقيت الاسكندريه !

وهى رحله فى زمان " المدينه الذهبيه " التى جعل منها البطالمه .. فردوسا زاهرا متألقا ، ولم يبق من عزها المندثر الا الاسماء وبقايا شواهد المجد القديم .. فإلى كل مصرى يعتز بذاته الحضاريه .. أقدم صفحه مشرقه من سجل حضارتنا ..

عرفه عبده على

وتحقق حلم .. الأسكندر الأكبر !

يروى لنا المؤرخ الإغريقى القديم " بلوتارك " حكايه طريفه يقول فيها إن الإسكندر رأى فى الحلم شيخا جليلا له شعر أبيض ينشد أبياتا من الشعر الإغريقى القديم تقول " هناك فى وسط البحار التى تسبح فيها مصر ... تقوم جزيرة فاروس التى يعرفها الكل " ... وهى أبيات من " الأوديسه " التى ألفها شاعر الإغريق " هوميروس " ... وعندما شاهد الاسكندر جزيرة " فاروس " تمتد فى جلال أمام الشاطىء المصرى ، وبنظرة الملاح المتمرس فى جغرافية الموانى ، قال الاسكندر لرفاقه وهو يشير إلى الجزيره وانحناءات الشاطىء : " هذا أعظم مرفأ طبيعى يليق بأن يصبح مركزا لأساطيل الإغريق الحربيه و التجاريه ... ومنه استطيع أن أسيطر على البحار وأسيطر على الأرض " !

وعلى الفور استدعى الاسكندر المهندس " دينوكراطيس " وطلب منه ان يخطط له رسما كروكيا على الارض لانشاء مدينه عظيمه تليق بمستوى الأفكار التى تدور فى ذهنه .. فطلب " دينوكراطيس " بعضا من مسحوق الطباشير ليرسم به التصميم الهندسى للمدينه المقترحه فلم يجد ، وأعطوه كميه مناسبه من دقيق القمح لتقوم مقام مسحوق الطباشير .. ويقول " بلوتارك " : " وبينما كان الاسكندر يتأمل هذا التخطيط البديع للمدينه الجديده ، ظهرت فجأه أسراب من الطير وانقضت على الارض لتلتهم دقيق القمح المنثور فوق خطوط الرسم .. وعندئذ تشاءم الاسكندر وكاد يتخلى عن فكرة انشاء المدينه فى هذا المكان لولا ان بعض مرافقيه من ضباطه و أصدقائه اقنعوه بأن مجىء الطيور يعتبر علامة خير تعنى ان المدينه ستوفر الثمار والحبوب والغذاء الذى يملأ بطون الناس ، كما ستوفر الأفكار والثقافه التى تغذى عقولهم .. فأقتنع الاسكندر بهذا التحليل وأمر بالبدء فورا فى إنشاء مدينة الاسكندريه التى أصبحت عاصمه لمصر واعتبرت أعظم مدينه فى العالم القديم بأسره .

كان الاسكندر قد انتصر فى جميع المعارك الحربيه التى خاضها ضد الجيش الفارسى ... وفى طريقه الى مصر استولى على جميع مدن الشواطىء الشرقيه للبحر المتوسط التى كانت تحت سيطرة الفرس .. ووصل الاسكندر الى مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق. م واستسلمت له الحاميه العسكريه

( )

الفارسيه دون أية مقاومه .. وكان " مزاكيس " هو الحاكم الفارسى الذى سلم مصر إلى الاسكندر دون قيد أو شرط ... وفى سبيل أن ينجو بجلده قام بتسليم الاسكندر المبالغ التى نهبها من مصر والتى قدرت بنحو ثمانية ملايين من الجنيهات الذهبيه بالإضافه إلى الكنوز والنفائس الثمينه التى كانت تزخر بها القصور الملكيه والمعابد وبيوت النبلاء !

ومما لا شك فيه أن زعماء المصريين من الكهنه كانوا يعلمون أن الاسكندر كان غازيا متحضرا يهدف إلى تحرير البلاد والشعوب من الظلم ، ونشر الحضاره والثقافه الاغريقيه المصرية الاصل والجذور " ... كذلك فقد ذكرهم الاسكندر بأبطالهم الفاتحين العظام أمثال تحوتمس الثالث وسيتى الأول و رمسيس الثانى الذين خاضوا الحروب والمعارك الكبرى لتهذيب الشعوب الأدنى حضاره ، ولنشر الحضاره والثقافه والاخلاق والعادات والتقاليد المصريه ، ونشر عبادة " آمون " فى البلاد التى فتحوها وضموها إلى الإمبراطوريه المصريه .. فجميع هؤلاء الفاتحين المتحضرين كانوا يهدفون بفتوحاتهم إلى أغراض نبيله تتصل بشئون الحضاره ، ولا يهدفون إلى مجرد ضم الأراضى والاستيلاء على الكنوز والثروات وأعمال السلب والنهب و إذلال الشعوب المغلوبه على أمرها ، كما كان يفعل الغزاه من ملوك الفرس .

وعلى هذا الأساس استولى الكهنه المصريون على الاسكندر نفسه بعد أن استولى على مصر ! ... فتوجوه كفرعون فى عاصمة البلاد بالمدينة " منف " .. كما أوحوا إليه بفكرة انه ابن الإله " آمون " و أوصوه بان يتوجه ليستشير أباه آمون فى معبد وحيه العظيم المنعزل فى واحة سيوه فى عمق الصحراء المصريه . ويقول " بطليموس بن لاجوس " فى وصف تلك الرحله إلى واحة سيوه - وكان من أقرب خلصاء الاسكندر والذى قدر له أن يصبح ملكا على مصر بعد موت الاسكندر - إن موكب الاسكندر فى اختراق الصحراء المصريه قد صاحبته بعض الحوادث والظواهر التى تعتبر من قبيل المعجزات ... فقد هطلت الأمطار التى تعتبر علامة الخير ، كما أن غربان السماء كانت تطير وتحط أمام الموكب لترشده إلى الطريق الصحيح ، كما أن ثعبانين كبيرين من فصيلة ذوات الأجراس كانا يتقدمان الركب

( )

ويرسمان بزحف جسميهما على الأرض خطوطا تدل على الاتجاه الصحيح نحو المعبد .

وحين وصل موكب الاسكندر إلى معبد آمون بواحة سيوه ليلتقى الوحى المقدس قابله الكهنه المصريين على باب المعبد قائلين : " ابن آمون سلاما " .. وحين أدخلوه إلى قدس الأقداس أكدوا له أن أباه الإله قد وهبه " رقاب كل الأحياء ، وكل الممالك ، وكل الشعوب ، وكل الأراضى التى تسطع عليها الشمس " ... وقد اقتنع الاسكندر تماما بذلك الوحى المقدس ، وامتدت فتوحاته لتشمل معظم انحاء العالم القديم ، وتبوأ مكانته التاريخيه بين الفاتحين العظام ، وامتدت إمبراطوريته من مقدونيا وبلاد اليونان إلى أسيا الصغرى وسوريا وكل البلاد الواقعه على الشواطىء الشرقيه للبحر المتوسط ، كما فتح بلاد ما بين النهرين والعراق وأرمينيا وإيران كلها وأفغانستان حتى عبر الجبال " هند كوش " ووصل إلى حدودالهند.

ميناء السلام .. وبابا الشمس والقمر !!

******

عندما جعل بطليموس الأول الإسكندرية قاعدة ملكه ، كانت قد خرجت من طور الإرتباك الذي يصاحب عادة المنشآت الجديدة ، ولكن كان يعوزها مع ذلك ، عمل كثير لتحويل تلك الآكام والتلال الرملية والأرض القاحلة وقرية راقوده إلى مدينة هيلينية عظيمة ، وقد قام المهندس دينوكراتيس " Dinocrates" بتخطيط المدينة على الطريقة المألوفة عند اليونان بشوارعها المستقيمة المتقاطعة في زوايا قائمة وهو نظام محبب إلى اليونان في تخطيط المدن والبلدان ، وقد بنيت على رقعة غير فسيحة وهى المكان المحصور بين بحيرة مريوط والميناء البحري ، وكانت البحيرة متصلة بالنيل وهو متصل بالبحر الأحمر بقناة (أتمها بطليموس فيلادلفوس) كما كانت البحيرة متصلة كذلك بالميناء وعلى ذلك كانت تستخدم ميناء عذب المياه ، وقد بنى جسر يصل جزيرة فاروس بالساحل وكان يسمى " هيبتا ستاديوم " وبفضل إقامة بعض منشآت وأبنيه أخرى على الجانب الشرقي تكون ميناء بحري عظيم هادئ شرقي هذا الجسر ، وفى الغرب منه تكون ميناء آخر سمى بميناء السلام وهو الميناء الغربي الوحيد الذي يستعمل حتى الآن ، وكانت المدينة تمتد طولا من الشرق إلى الغرب ويفوق طولها عرضها كثيرا ، ويخترقها من الشرق إلى الغرب شارع عظيم يسمى بالشارع الكانوبى وهو قصبة المدينة وعرضه يزيد على مائة قدم ويقطعه في وسط المدينة شارع آخر ممتد من الشمال إلى الجنوب وكانت نهايته عند رأس " لوخياس " وكانت الشوارع موازية لهذين الشارعين ، فسبعة منها تجرى متوازية في اتجاه طول المدينة وأثنى عشر ممتدة بحسب عرضها وتسمى بأسماء خاصة من أفراد الأسرة المالكة ، وفى نهايتي ذلك الشارع الرئيسي يقوم بابان عظيمان سمى الشرقي منهما في

العصور المتأخرة " باب الشمس" و سُمي الغربي " باب القمر " كان على جانبي هذا الطريق البوائك والعقود ذات أعمدة تحمى المار من قيظ الشمس ويظهر أن بطليموس الثاني أعاد تسميه شوارع المدينة بطريقة نظامية تكريماً لأخته وهى زوجته المتوفاة " أرسينوى " الثانية فأطلق إسمها على عدة شوارع ملقباً إياهـا بألقاب آلهة اليونانيين ، بمنحها اللقب الذي تعبد به تلك الآلهة فسمى بعضـها شارع أرسينوى الملكة (Basileia) أي أرسينوى في دور الملكة هيرا (Hera) أو " هيرا ملكة السماء " وسمى آخر " ارسينوى الرحيمة " وهو لقب أستعير من العبادة الخاصة بالالهة أفروديت ، وثالث شارع أرسينوى الالوسيه (Eleusinia) تشبيهاً لها بالآلهة ديمتر (Demeter) ورابعاً شارع أرسينوى ذات البيت النحاسي (Chalkioikos) لتمثيلها بالالهة أثينـا (Athene) ذات البيت النحاسي حامية وراعية اسبرطة .

وصف سترابو :

****

تصدى لطبوغرافية المدينة كثير من الكتاب الأقدمين فتناولوا وصف مواقع الأبنيه الرئيسية والمعابد والساحات وحلبات السباق التي كان يحتويها هذا المحيط العظيم وكان يشتمل في الحقيقة على مدينتين هما المدينة الجديدة (Neapolis) التي أسسها الاسكندر والمدينة القديمة راقوده ، فكان وصف سترابو أوفاها وأكثرها دقة وشمولاً :

" ان شكل سطح المدينة لهو أشبه بالعباءة الحربية (Chlamys) وجانباها الطويلان هما اللذين تحيط بهما مياه البحرين وطول قطرها نحو ثلاثين ستاديا ، والجانبان القصيران هما البرزخان وسعة كل منهما سبعة أو ثمانية ستاديات ، ويضيق عليه البحر من ناحية والبحيرة من الناحية الأخرى ، والمدينة كلها مقسمة إلى شوارع صالحة لجرى الخيل وجر العربات ، يقطعها شارعان

واسعان جدا يبلغ اتساعهما اكثر من"بليثروم" في العرض ويقطع أحدهمـــا الآخر إلى قسمين في زوايا قائمة .
وتحتوى المدينة على أفنية عامة مقدسة (أي معابد) في أبهى حله من الجمـال ، كما تحتوى أيضا على القصور الملكية التي تشغل ربـــع المحيـط الملكـي للمدينة بل ثلثه ، لأنه لما كان كل ملك من الملوك قد تعود أن يضيف بعـــض التحسينات إلى المباني العامة ، حباً منه في الظهور بمظهر العظمة ، فكذلـــك عنى أيضا بتشييد مبنى له على نفقته الخاصة بالإضافة إلـــى تلـك المنشـآت القائمة من قبل فأصبحت الآن وقد حق عليها قول الشاعر " أقيم فيها مبنى فوق آخر " ومع ذلك فجميع مبانيها متصل بعضه بالآخر بالمينـــاء بـل تلـك المباني الواقعة خارج الميناء ، وتعتبر دار الحكمة (museum) جـزءاً مـن القصور الملكية وبها طريق عام وفناء مسقوف ومجهز بالمقاعد وبيت كبـــير تمتد فيه صالة المائدة العامة لرجال العلم المشتركين فـــي دار الحكمـة ، ولهذه الجماعة أيضا أملاك مشتركة ولهم كاهن مشرف على دار الحكمة كـان يعينه الملوك في غابر الزمان ولكنه يعين الآن من قبـل قيصـر (اكتـافيوس أغسطس) ، والسيما (sema) أيضا – كما تسمى – جزء من القصـور الملكية وتمثل المحيط الذي كان يحتوى على مقابر الملوك وقبر الاسـكندر لأن بطليموس بن لاجوس (أي سوتر) أستبق برد يكاس (Perdiccas) بانتزاعـه جثة الاسكندر منه ، في أثناء نقله إياها من بابل ، وقد عرج بها شطر مصـر تحركه الأطماع والرغبة في امتلاك هذه البلاد وفضلاً عن ذلك لقي برد يكاس حتفه بان ذبحه الجند عندما هاجمه بطليموس وضيق عليه الخناق بمحاصرتـه في جزيرة قحله ، وهكذا قتل برديكاس بأن سدد الجند الذين هاجموه حرابـــهم الطويلة إلى صدره أما الملوك الذين كانوا في صحبته من (فليب) اريدايـوس (Arrhidaeus) وأطفال الاسـكندر وكذلـك روكسـانا (Rhoxane) زوج الاسكندر فقد رحلوا إلى مقدونيا ثم حمل بطليموس جثـة الاسـكندر ، التـي

ووريت في التراب في الإسكندرية حيث لا تزال ترقد في رمسها إلـــى الآن – لا في نفس التابوت الذي كانت فيه من قبل – لأن التابوت الحالي مصنوع مـن الزجاج (أو لعله من الرخام) وقد كان ذلـــك التـــابوت الـــذي وضـــع بطليموس الجثة فيه ، مصنوعا من الذهب ، ولكن بطليموس الملقب كوكيـــس وأيضا بارايسا كتوس نهب التابوت الذهبي على أثر حضوره من ســوريا تم طرد بعد ذلك فوراً ، وعلى ذلك لم تكن لغنيمته أي جدوى وتقع في مدخـل الميناء الكبير الى اليمين – جزيرة فاروس وبرجها وتقــع علـى اليســار الصخور وكذلك رأس لوخياس ويقوم عليه قصر ملكي ، ويجد الداخـــل إلـــى الميناء على اليسار ، القصور الملكية الداخلية ، وقد شيدت مبانيها فـــي سلسـلة متصلة بالقصور الملكية الواقعة على رأس لوخياس ، وبها المســاكن العديـدة ذات الألوان المختلفة والأحراش المقدسة (أي المعابد) ويقع الميناء الصناعي فيما يلي هذه الأبنية ، وقد أخفى هذا الميناء عن الرائي وهـــو ملــك خــاص بالملوك ، وفى تجاه المينـــاء الصنـــاعي تقــع كذلــك جزيـــرة انتـــيرودس (Antirrhodes) التي يقوم بها قصر ملكي وبها كذلك ميناء صغير . وســميت كما لو كانت نظيرة لرودس ، ويقع على الشـــاطئ المقـــابل المســـرح (Theatron) على شـــكل كـــوع نـــاتئ مـــن المكـــان المســـمى بـــالأمبريوم (Emporium) ويحتوى على معبد الإله بوسيدون ولقد أضاف انطونيـــوس إلى هذه الثنية ، جسراً ناتئاً إلى أبعد من هذا في وسط الميناء وبنى في نهايتـــه مسكناً ملكياً أسماه تيمونيوم (Timonium) وكان هذا آخر عمل لـــه عندمـــا تخلى عنه أنصاره وأبحر إلى الإسكندرية بعد هزيمته في اكتيوم أختار لنفســه أن ينحو نحو تيمون ، وأزمع أن يقضى بقية عمره في عزلة عن كل هـــؤلاء الأصدقاء ، ثم يصل المرء بعد ذلك إلى القيصـــار يـــوم (Caesarium) ومخازن الاستيداع ، ويلي هذه أحواض السفن (الترسانات) حتى جسر هيبتـا ستاد يوم ، وهذا القدر هو وصف الميناء الكبير وما يحيط به .

ثم يصل الإنسان فيما يلي الهيبتا ستاد يوم إلى ميناء السلام (بونوستوس) ، وفى جنوب الميناء الأخير يجد ميناء صناعيا يسمونه أيضا كيبوتوس (Cibotus) وبه أيضا أحواض للسفن وإذا توغلنا في الداخل بعد هذا الميناء وجدنا قناة صالحة للملاحة ممتدة حتى بحيرة مريوط ، ولايزال جزء صغير من المدينة باقياً فيما وراء تلك القناة ، ثم يجد الإنسان بعد ذلك ضاحية نكروبوليس (أي مدينة الموتى) فيها حدائق كثيرة إلى جوار القبور والأماكن المعدة لتحنيط جثث الموتى ، وفى هذا الجانب من الفناء يوجد كل من السرابيوم (Serapeum) ومعابد أخرى قديمة قد هجرت تقريبا الآن بسبب تشييد المباني الجديدة في نيكوبوليس (Nicopolis) فمثلا يوجد مدرج (Amphitheetron) وملعب (Stadium) في نيكوبوليس حيث يحتفي بإقامة الألعاب مرة كل خمس سنوات ولكن المباني القديمة قلت أهميتها وأهمل شأنها .

ومجمل القول أن مدينة الإسكندرية تزخر بالأبنية العامة والمعابد ، ولكن أجمل هذه المباني جميعاً هو بناء الندوة الرياضية والثقافية (الجمنازيوم - Gymnasium) التي كانت تحتوى على دهاليز طويلة إمتدت لمسافة طولها أكثر من فرسخ – وفى وسط المدينة نجد كلا من المحكمة القضائية (Dikasterion) والحرم المقدسة وكذلك معبد الإله " بان " أو البانيوم (Paneium) وهو يبدو أشبه بمرتفع من صنع الإنسان على شكل مخروط شجرة الشريمين ، وهو يشبه تلاً صخرياً يوصل إلى قمته طريق حلزوني ، ويستطيع المرء أن يرى المدينة بأكملها من قمته فهي تبدو الطريق الواسع الذي يشق المدينة طولاً من نكروبوليس ماراً بمبنى الندوة الرياضية والثقافية حتى الباب الكانوبى ، ثم يلى ذلك البناء المسمى بحلبة سباق الخيل هيبودروم (hippodrome) وتمتد الشوارع الأخرى التي تقع في موازاته حتى القناة الكانوبيه وبعد اختراق مبنى حلبة سباق الخيل يصل الإنسان إلى مدينة النصر (نيكوبوليس) التي تحتوى على مساكن تطل على شاطئ البحر

واقعة في أسفله وقد أحاطت به من جميع الجوانب وتمتد

وتبعدمدينة النصر عن الإسكندرية بمقدار ثلاثين فرسخاً ، ولقد كرم " أغسطس قيصر " هذا المكان ، لأنه تم له فيه النصر في معركة على من أتوا لمحاربته من انطونيوس وأنصاره ، ولما تم له في أول هجوم ، الاستيلاء على المدينة إضطر انطونيوس إلى الإنتحار ، كما أكره كليوباترا على التسليم له وهي لا تزال على قيد الحياة ، ولكنها تمكنت بعد فترة قليلة من الإنتحار سراً وهى في السجن بلدغة حَيّة ، وفى رواية أخرى ، بإستخدام دهان سام ، ونجم عن ذلك أن إمبراطورية اللاجيديين (Lagidee) التى عمّرت سنوات طويلة تفككت أوصالها وذلك أن بطليموس بن لاجوس خلف الاسكندر ثم أتى فيلاد لفوس من بعد بطلليموس ثم تعاقب يور جيتيس (Euergeres) وفيلوباتور ابن اجانوكليا ثم أتي من بعده ابيفانيس (Epiphanes) وتبعه فيلوميتور وكان الإبن يُخلف دائماً الأب ولكن خلف فيلوميتور أخ له هو يورجيتيس الثاني الذي كان يطلق عليه أيضاً فسكون (Physkon) ثم خلفه بطليموس الملقب لاثيروس (Lathyrus) ثم خلف الأخير اوليتيس (Auletes) وهو وُلد كيلوباترا ، وعلى ذلك كان جميع الملوك الذين خلفوا بطليموس الثالث – وقد أفسدتهم حياة الترف والنعيم – سيئ التصرف في حكم البلاد ، ولكن كان أسوأهم على الإطلاق في إدارة شئون البلاد بطليموس الرابع ، وبطليموس السابع وآخر البطالمة وهو اوليتيس الذي كان – فضلاً عن حياة الفجور – يتدرب على الزمر بالناي على أنغام جوقة المرتلية ، وكان يفاخر بعلمه هذا حتى أنه لم يتورع عن تنظيم مباريات في القصر الملكي كان يتقدم فيها بنفسه للمسابقة بين المتبارين ، وعلى ذلك نفاه السكندريون، ولما كان له ثلاث بنات إحداهن وهى الكبرى شرعية فان السكندريين أعلنوها ملكة عليهم ولكن ولديه الآخرين – وكانا لا يزالان طفلين – أُقصيا إذ ذاك تماماً عن تولى الحكم ، ولما إستقرت على العرش ، بعث السكندريون في طلب زوج لها من سورية يدعى " كيبر ساكتيس " وكان يدعى أنه من نسل الملوك

السوريون ، وبعد انقضاء بضعة أيام من زواجهما ، لم تطق الملكة صبرا على جفاء طبعة وتبذله فتخلصت منه بان خنقته وتزوجت بعده من رجـــل يدعـــى كذلك انه ابن مثريد اتيس بوباتور ، وهو اركيلاوس (Archeleus) ..... وكان يقضى وقته إذا ذاك مع جابينيوس (Gabinius) مؤملا أن يصحبـــه فـــي حملته على البارثيين (Parthians) ، ولكن بعض العملاء أحضروه من غـــير علم جابينيوس إلى الملكة والتي أعلنته ملكا وفى الوقت نفسه كان بومبي العظيم قد إستقبل اوليتيس وأكرم وفادته عند وصوله إلى روما ، وقدمه إلى الســناتور وضمن الأرجوانية ، ويتمتع بمراتب الشرف التقليدية ، ويتولى الإشراف علـــى مصالح المدينة ، وكان هناك موظف آخر هو المســـجل وثـالث هـــو القاضي الأكبر ، ورابع هو قائد العسس الليلي ، وكان هؤلاء الحكام ينتمـــون لعهد الملوك ، ولكن نظراً لسوء إدارة هؤلاء الملوك ، فـــإن رخـــاء المدينـــة ورفاهيتها كانت آخذه في الإختفاء بسبب حالة العصيـــان والتمـــرد الســـائدة ، وعلى أي حال فان بوليبيوس الذي زار المدينة قد ساءته أحوالـــها ، خـــلال إقامته بها ، فقال انه كان يسكن المدينة ثلاث طبقات : أولا عنصـــر الشـــعب المصري أو الوطني وهؤلاء كانوا سريعي الغضب وغير ميالين لحياة الحضر ، ثانياً طبقة الجند المرتزقة ، وهم جماعة قســـاة عنيـــدون شـــديدو البـــأس والمراس (لانه قد جرت العادة قديماً بأن يحتفظ الملوك بجند أجانب تعـودوا الحكم بدلا من الطاعة وذلك لما وجدوه في الملوك من عدم الجدارة والكفايـــة) وثالثاً : عنصر السكندريين الذين لم يظهروا كذلك ميلاً واضحاً نحـــو الحيـــاة المدنية للأسباب نفسها ، ولكنهم مع ذلك كانوا أفضل من أولئك الآخريـــن (أي الطبقة الأولى) إذ أنهم على الرغم من كونهم شعباً خليطاً فانهم مع ذلك كـــانوا لا يزالون يونانيي الأصل يحافظون على العادات الإغريقية ، ولكن هذا الجمع الغفير أيضاً كان مصيره الفناء على يد " يورجيتيس فسكون " خاصة ، وفـــي عصره زار "بوليبيوس" الإسكندرية ، وكان" فسكون" هذا يلقـــى معارضـــة مـــن

الأحزاب ، وكثيرا ما كان يعرض الجماهير لعدوان الجند ولما كانت تلك هـــي الأحوال الجارية في المدينة فان على حد قول بوليبيوس لم يبق في الحق إلا أن يردد الإنسان مع الشاعر قوله " أن الطريق إلـــى مصـــر طويـــل محفـــوف بالمخاطر " .

هكذا كان ... وصف استرابو للإســـكندرية وميناءيـــها ومعالمـــها ، وأحوال سكانها ، وهو وصف حرصنا على أن نورده بأكمله حتى تكون لدينا صورة متصلة لما كانت عليه حال هذه المدينة في الثلث الأخير مـــن القـــرن الأول قبل الميلاد... صورة عامة عن معالمها وحدودهـــا وأثارهـــا ، وعلـــى عظمة مبانيها الملكية ، ومبانيها العامة، عن موانيها وفنارها والقصر الملكـــي ، ودار الحكمة (الأكاديمية أو مجمع العلماء) والمكتبـــة والمنتـــدى الريـــاضي والثقافي (Gymnasium) ، و معاهد المصارعة ومـــا إليـــها (Pliaestrae) والمحكمة (Dikasterion) وقبر الاسكندر (Sema) وحلبة الســـباق (Stadium) (٢) وصورة ما عن أخلاق أهلها .

منارة الإسكندرية ... إحدى عجائب الدنيا السبع !

يقول المؤرخ " جون مارك " أن الإسكندرية كانت ينبوعـــاً لنشـــر الثقافـــة والحضارة في حوض البحر الأبيض ، وحتى بعد أن تحـــول مصـــدر الثقـــل السياسي إلى روما ، فقد ظلت الإسكندرية تتبوأ مكانتها السامية في عالم الثقافة والفكر .

ومن الواضح أن بناة المدينة قد وضعوا في إعتبارهم أن تكون الإســـكندرية أعظم مدن العالم القديم .

وأن تتميز هذه المدينة بمنشآت لا مثيل لها في أية مدينـــة أخـــرى .. فـــلا غرابة إذن في أن تكون مكتبة الإسكندرية أكبر وأضخم مكتبة في العالم القديـــم

وأن تكون منارة الإسكندرية أضخم وأفخم وأعلى منارة في العالم الحديث أيضاً ، الأمر الذي جعل المؤرخين القدماء يعتبرونها واحدة من عجائب الدنيا السبع.

ومن المعروف أن جزيرة " فاروس " كانت غير متصلة بشاطئ الإسكندرية المواجه لها .. لذلك فقد تم ردم المسافة التي كانت تفصل الجزيرة عن الشاطئ وانشأوا فوقها طريقاً أطلقوا عليه إسم " هبتاستاديوم " ويبلغ طوله نحو ١٣٠٠ متر ، وبذلك أصبحت الجزيرة جزءاً من أرض المدينة .... وفي الجانب الشرقي من ساحل فاروس إختار " بطلميوس الأول " موقعاً لبناء أعظم منارة من منارات الدنيا ، وكلف المهندس " سوستراتوس" بتصميم وتنفيذ هذا المشروع ... وإستغرق العمل في البناء سنوات طويلة إمتدت حتى سنوات حكم " بطلميوس الثاني " الذي قام بإفتتاح تلك المنارة العظيمة حوالي عام ٢٩٠ ق.م وأطلق عليها إسم " فاروس " وهو إسم مشتق من إسم الجزيرة ، وقد إشتهر هذا الإسم في العالم القديم والعالم الحديث ، حيث سميت به معظم المنارات البحرية ... وعلى سبيل المثال تحور هذا الإسم إلى " فار " في اللغة الفرنسية ، والى "فارو" في اللغة الإيطالية ، كما تحور في اللغة العربية إلى " فنار " أو " فنارة "وإلى " منار " أو " منارة " .

وللأسف الشديد لم يتم العثور على أي وصف تفصيلي لمنارة الإسكندرية فيما كتبه المؤرخين القدماء ، وأغلب الظن أن ما كتبوه قد ضاع وإندثر بفعل عوادي الزمن .. ومع ذلك ولحسن الحظ فقد قام المؤرخ الأندلسي " ابن الشيخ" بزيارة الإسكندرية عام ١١٦٥م أي بعد إنشاء المنارة بنحو ١٤٤٥ سنة وكتب وصفاً مفصلاً للمنارة كما كانت تبدو في زمن تلك الزيارة ... وقد إستخدم بعض المؤرخين الأجانب هذا الوصف في تكوين صورة تقريبية عامة لما كانت عليه المنارة عند إنشائها .

وقيل في ذلك أن المنارة كانت مكونة من أربعة طوابق ، الطابق الأول منها له قاعدة مربعة ويبلغ ارتفاعه نحو ٦٠ متراً ، يتضمن أكثر من ٣٠٠ حجرة

كانت مخصصة لإقامة أفراد الحامية العسكرية والعمال المعينين لتشغيل المنارة ، كما كانت هناك بعض حجرات مخصصة لتخزين وتشوين مستلزمات التشغيل ... وفى أعلى هذا الطابق كانت هناك شرفه تحيط بجوانبه الأربعة ، ووضعت فيها مجموعة من التماثيل الضخمة المصنوعة من البرونز تمثل بعض آلهة الإغريق ... أما الطابق الثاني فقد كان إرتفاعه نحو ٣٠متراً وله قاعدة ثمانية الأضلاع ترتكز فوق سطح الطابق الثاني وعليه كانت ترتكز قاعدة الطابق الثالث المستديرة الشكل ، وفى أعلى هذا الطابق كان يوجد مصباح المنارة ومرآتها وتحيط به ثمانية أعمدة تحمل قبة المنارة وفوق هذه القبة أقيم تمثال كبير يحتمل أنه كان للإله " بوسيدون " اله البحار ويبلغ إرتفاعه نحو ٧ أمتار .. وقيل أن المنارة كانت مبنية بالحجر الجيري وكانت بعض أجزائها محلاة بالرخام والبرونز .. وقيل أن الارتفاع الإجمالي للمنارة كان يصل إلى حوالي ١٣٥ متراً ، وكان بداخلها سلم حلزوني مزدوج للصعود والنزول بين الطوابق ، وفى وسطه كانت هناك آلة رافعة تستخدم في عملية نقل الوقود ومستلزمات تشغيل المنارة .

وللمؤرخين العرب شطحات خيال طريفة ومبالغ فيها إلى حد كبير .. فقد قالوا – على سبيل المثال – عن المرآة المقامة في قمة المنارة أن الأهالي كانوا ينظرون إليها فيرون ما يدور في مدينة القسطنطينية .. وقالوا أيضاً أن المدافعين عن المدينة كانوا يعكسون أشعة الشمس بهذه المرآة ويصوبونها نحو سفن الأعداء فتحترق وهى على بعد ١٠٠ ميل ... كما قالوا أن المهندس الذي قام ببناء المنارة أقام أساسها على قاعدة من معدن الرصاص المذاب وقال آخرون أن القاعدة كانت مصنوعة من الزجاج الذي يتحمل ثقل المنارة بكافة طوابقها إلى أخر تلك التصورات والخيالات !

وظلت المنارة صالحة للعمل وتؤدى دورها في إرشاد السفن حتى الفتح العربي لمصر سنة ٦٤١ م ، بمعنى أنها استمرت في أداء هذا الدور لمدة أكثر

من ٩٣٠ سنة دون أن تتعرض للتخريب أو لعوادي الزمن ... ولكن حدثت أول مصيبة للمنارة عام ٧٠٠ م حين أراد أحد أباطرة الإمبراطورية البيزنطية أن يغزو مصر ويستعيد ضمها إلى ما كنت عليه من تبعية لهذه الإمبراطورية ، ولكنه خشي أن يكتشف قدوم سفنه الحربية بواسطة المرآة المعلقة على قمة المنارة فيستعد المدافعون عن الإسكندرية للتصدي لها ويفقد بذلك عنصر المفاجأة .. لذلك فقد وضع هذا الإمبراطور خطة للتخلص من مرآة المنارة ، فأرسل من يروج في مجلس الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فكرة وجود كنز الاسكندر الأكبر مدفوناً تحت القاعدة التي ترتكز عليها المرآة .. والتقط الخليفة هذا الطعم وانطلت عليه الخدعة ، فأمر بهدم القاعدة بحثاً عن هذا الكنز وتحطم بالتالي مصباح المنارة ومرآتها .

ثم بدأت عوادي الزمن ومصائب الطبيعة تتكالب على المنارة ، فحدث زلزال هائل في عام ١١٠٠ م أطاح بالطوابق الثلاثة العليا للمنارة ولم يعد باقياً منها سوى الطابق الأول ... أما الضربة القاضية فقد حدثت في عام ١٢٢٦ م حين وقع الزلزال الكبير الذي دمر الطابق الأول عن آخره وتساقطت أحجاره في مياه البحر .

وفى أثناء حكم السلطان قايتباى تنبه إلى ما كان يضمره السلاطين العثمانيون لمصر ، وإلى الخطط التي كانوا يدبرونها لغزوها فأمر ببناء حصن منيع للدفاع عن الإسكندرية – عرف فيما بعد باسم قلعة قايتباى – على نفس القاعدة التي كانت تشغلها المنارة .... وإنتهى بناء تلك القلعة في عام ١٤٨٠ م .. ولكن غزو العثمانيين لمصر جاء من الشرق في عام ١٥١٧ م أي بعد بناء القلعة لعوادي الزمن والطبيعة إلى أن قام محمد على باشا بتجديدها .. ولكن الإنجليز دكوا القلعة بمدافع بوارجهم الحربية حين قاموا بغزو مصر عام ١٨٨٢ م .. وظلت القلعة في حالة سيئة إلى أن قامت هيئة الآثار بترميمها ترميماً شاملاً عام ١٩٤٨ .

إن منارة الإسكندرية .. جزء من تاريخها ، وتاريخ الإسكندرية هو تـــاريخ العودة إلى البحر ، والارتداد عنه ، ففي العودة إلى البحر حياة الإســكندرية ، وفى الردة عنه ... موتها ! .

الإسكندرية ... " البيت الافروديتى " منارة للحضارة

****

" حين نسمع عزف الاورج أو نشاهد الطنبور أو نرجع الى أطلس جغرافـي ، أو قواعد اللغة والميكانيكا والهندسة ، وإذا قرأنا الشعر والروايات وشـاهدنا فنون المسرح والأوبرا ... حين نفعل ذلك ... يجب أن نتذكر الإسكندرية " !

" **د. جون رودينك** "

تاريخ الإسكندرية يرتبط دائمـا بالسياسـة والفنـون والعلـوم والأدب والموسيقى والترجمة ، فلا يذكر تاريخ الإسـكندرية ، إلا ونتذكـر مكتبتـها العظيمة التي كانت منارة للإشعاع الثقافى ، تخرج فيها **عدد** مـن الفلاسـفة الإغريق والرومان والمصريين .

كانت مصر مصدرا لمادة الكتابة القديمة علـى أوراق الـبردي ، وكـان للمصريين إنتاج وافر من الكتابات في ميادين العلم والأدب ، ولعل الكتابـة لـم تنتشر في تلك العصور ، في أي مكان ، كما انتشرت في وادي النيل ... وكان يوجد أيضا بمصر ، نظام متميز للمحفوظات والسجلات العامة - غير أننـا لا نعلم عن وجود مكتبة يمكن أن تقارن بمكتبة الإسكندرية ...

وعلى مدار التاريخ ... لم نعرف مكتبة إكتسبت من الشهرة أو شغل بأمرها رجال الفكر والعلماء ، وإهتم بمصيرها الباحثون والمؤرخيـن ، كمـا حـدث لمكتبة الإسكندرية القديمة ... التي اعتبرها القدماء : أكبر مكتبة عرفها العـالم القديم على الإطلاق ، كانت مركزاً للثقافة ومشعلاً للحضارة ، والأساس الـذي قامت عليه جامعة الإسكندرية القديمة ، وظلت كذلك طيلة سبعة قرون ، حملت فيها الإسكندرية لواء الثقافة والإبداع للعالم .

عندما تحقق للاسكندر العظيم حلمه ، بإنشاء مدينة الإسكندرية لتكون مركزاً للثقافة الإغريقية الهلينية الجديدة ... فان خلفائه البطالمة قد حرصوا بجانب إضفاء كل مظاهر العظمة المادية على عاصمة ملكهم - على إثراء الحياة المعنوية والفكرية فيها ، فقد إشتهرت الإسكندرية قبل كل شئ بدار الحكمة أو الأكاديمية ودار الكتب ، ويظهر أن الأولى كانت في بادئ أمرها معبداً للتاسوع الإلهي من أرباب العلوم والفنون (Muses) وله رئيس هو سادن لهذه الآلهة ثم مالبثت أن أصبحت جامعة كبرى أو على الأقل محفلاً جامعياً أشبه بإحدى كليات جامعتي أكسفورد أو كمبردج في نظمها وتكوينها ، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار ، يلتقون فيها وتغدق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خبراتها ، ما يشجعهم على الانتاج العلمي والفكري ، وتمنحهم مرتبات من خزانتها الملكية في سخاء وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الجامعة من الموارد المعتادة، استطاع علماؤها أن يتوفروا على أعمال البحث والتنقيب، لأن التعليم والتدريس لم يكن عملاً إجبارياً فيها ، ولقد وجدوا في المكتبة الملحقة بها مورداً عظيماً من الكتب والمراجع في متناول أيديهم يعتمدون عليه في متابعة أبحاثهم .

ولقد عني بطليموس الأول منذ أول الأمر بإدخال الأدب الإغريقي الى الإسكندرية ، وكان هو نفسه رجلاً من رجال الأدب، إذ كتب وصفاً لحملات الإسكندرية ، وأحاط نفسه بحاشية من الشعراء والفلاسفة وأسبغ عليهم الحظوة والمودة ما حبب إليهم الإقامة في الإسكندرية، فقرب إليه علماء النحو أمثال زينودوتوس (Zenodotus) والشعراء أمثال فيليتاس (Philetas) ، وعلماء الرياضة أمثال اقليديس (Euclid) ، وكان سخياً نحو هذه الشخصيات الفذة بقدر ماكان لين العريكة ، وكان يختص ستراتون (Straton) بقدر من عنايته حتى أنه قدم إليه هدية قدرها ثمانون تالنتات (نحو ١٨,٠٠٠ جنيها) فكان يعرف تماما كيف يجزل العطاء لذوى المواهب - في سخاء ملكي - ولكن ليس

بكاف أن يستهوى العلماء ويجذبهم بكرمه وسخائه الى الإسكندرية ، فلابد من الاحتفاظ بهم فيها ، حتى يتركوا أثراً باقياً دالا على إقامتهم في مصر ، فعمل على تهيئة الضمان الكافي بان يحصل هؤلاء العلماء في الإسكندرية لا على رفقائهم وزملائهم فحسب وانما الكتب والفرص وفسحة من الوقت كذلك لمتابعة دراستهم ، هذا فضلا عن عطف ملك مستنير ، وعندئذ رحل كل أولئك العلماء تدريجيا الى تلك الكعبة التي كانت تنتظر وفادتهم ، وكانت الإسكندرية في تلك الأزمنة المضطربة ، ملاذا يأوى إليه رجال الفكر ومستقرا للعمل المثمر ، وأخذ الناس يرحلون عن البلاد الإغريقية التي عمها الفقر وأصابها الوهن وأنهكتها الحروب ، وكذلك رحلوا عن آسيا التي لم تكن الحياة مستقرة فيها الى " أثينا الجديدة " على شاطئ مصر الشمالي ، وقد اتخذت مقراً للعلوم وأصبحت عظمتها إرثاً مشتركاً للجميع .

وقيل أن بطليموس الثالث أصدر أمراً يقضى بأن يأخذ من جميع السياح الذين يرسون على شواطئ الإسكندرية ما قد يكون معهم من الكتب ، وأن يبعث بها الى دار الكتب ويتسلم أصحابها بدلاً عنها نسخاً رسمية ، ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية ، وإنما كانت تشتمل على ترجمات لمؤلفات من اللغات الأخرى أصبحت محتوياتها في العصر الروماني تعد بمئات الألوف من المجلدات .

وكانت دار الحكمة بالإسكندرية تقوم في الغالب على أسس مقتبسة من نموذج إغريقي ، يلتقي العلماء في ساحاتها وأبهائها لتأدية أعمالهم وللمناقشة في الأمور الهامة من درس وبحث وإذا استطعنا أن نتصور ذلك المبنى الرئيسي الذي وصفه سترابون والأبنية الشاسعة في خارجه وقد ألحقت بالبناء الرئيسي ودار الكتب وما كان بهذه المباني من أروقة فخمة وأعمدة رشيقة ، أمكننا أن ندرك ما توفرت عليه الحياة الداخلية فيها من وسائل الراحة ، ففي ظل الهواء الدافيء في أفنيتها وفي كنف البهو غير المسقوف (Exedra)

كان ينزل أولئك العلماء ضيوفا يأكلون وينامون في تلــك الــدار ويعقــدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بعيدا عن ضوضاء المدينة وجلبتها ويعكفون علــى كتابة مؤلفاتهم التي ذاع صيتها وطبق الآفاق .

وضمت مدرسة الإسكندرية الفلســفية " فيلــون " اليــهودي الــذي آمــن بالأفلاطونية ووفق بينها وبين الديانة اليهودية وضمت " كليمان " " وأوريجين " الإسكندريين ، كما ضمت " افلوطين " الذي ولد في صعيد مصر فــي أوائــل القرن الثالث للميلاد ، ورحل الى الإسكندرية ليتعلم الفلسفة ، ثم أراد أن يقــف على أفكار الفرس والهنود فالتحق بالجيش الروماني المتجه الى فارس . لكــن الرومان بعد أن طردوا الفرس من سوريا هزموا أمامهم في العــراق ، فلجــأ أفلاطون الى أنطاكية ، ، ثم رحل الى روما ليؤسس فيها الأفلاطونية الجديــدة ويبقى الى نهاية عمره .

والإسكندرية التي تعبدت في عصرها البطلمى لبوسيدون إله البحر ، و"بــان" إله الشباب الدائم عند الإغريق ، هي التي آمنت برسالة المسيح بــن مريــم ، وأسست أول كنيسة في العالم ، وهى التي إعتنقــت الإســلام ، وإحتضنــت الشاطبى والمرسى أبا العباس وسواهما من أولياء الله الأندلسيين .

والإسكندرية التي طالما رقصت وغنت وشــربت وطربــت فــي أعيــاد البطوليمايا " التي حكى بها البطالمة أعيــاد " البانثينايــا " فــي أثينــا ، هــي الإسكندرية المتعصبة الدموية التي طاردت شابة رائعة الجمال راجحة العقــل ، كانت أستاذة للفلك والرياضيات في جامعة الإسكندرية في أواخر القرن الثــلث الميلادي وأوائل [القرن] الرابع . ولم تكن قد إعتنقت المسيحية التــي إعتنقــها عامــة المصريين آنذاك ، فلم يعودوا قادرين على التسامح مع من يخالفهم في الدين ، وهكذا ظلوا يتربصون بهذه الشابة الجميلة المثقفة "هيباتيا" حتى صادفوهــا فــي الطريق فتجمهروا حولها وهاجموها ، كما تهاجم الذئاب الجائعة حملاً وديعــاً ، ولم يكتفوا بقتلها غيلة وإنما مزقوا جسدها شر تمزيق ومثلوا بها أشنع تمثيل !

ولقد قتلت المدينة نفسها يوم قتلت هيباتيا ، فليست الإسكندرية إلا ذلك التعدد الخلاق الذي قامت عليه ، ليست إلا هذا الزواج الموفق بين مصر والعالم ، بين النهر والبحر ، بين الأرض والسماء ، والإسكندرية تزدهر وتنمو وتتألق مادامت وفيه لهذا المبدأ .. !

وكان أدباء الإسكندرية يحاكون أدباء اليونان القدماء ولكن ألوان الأدب التي تميزت بها الإسكندرية لا يمكن أن تقارن بما أخرجه اليوناني من الأدب في العصور الزاهرة الكلاسيكية ومع ذلك كانت آداب الإسكندرية ذات طابع خاص له قيمته .

ويقول " هيروداس " أن الإسكندرية هي : بيت افروديتي " ... وأن الإنسان ليجد فيها كل شئ : ثروة ، ملاعب ، متنزهات ، جيش كبير ، سماء صافية ، معارض عامة ، فلاسفة ، معادن ثمينة ، شبان ظرفاء ، وبيتا ملكيا طيب الأعراق ومجمعًا للعلوم ... وخمرًا لذيذة ونساءٍ حساناً .

وكان شعراء الإسكندرية ، قد إكتشفوا ما للعذارى من قيمة أدبية ، وسرعان ما جعلهن قصاصوها وكتابها ، موضوعاً لكثير من أعمالهم كما جعلوا سقوطهن خاتمة تنتهي بها هذه المؤلفات ... غير أن المدينة قد اشتهرت بسماحة نساءها ، وبكثرة ما فيها من فتيات المتعة ، حتى شكا " بوليبيوس " من أن أجمل البيوت الخاصة تمتلكها العاهرات ، وكانت النساء من مختلف الطبقات يسرن بكامل حريتهن في الشوارع ، ويبتعن حوائجهن من الحوانيت ، ويختلطن بالرجال وكان منهن أديبات وعالمات وشهيرات ...

وكانت الملكات المقدونيات وسيدات بلاطهن من " ارسينوى " قرينة بطليموس الثاني الى كليوباترا ، يقمن بدور هام في الشئون السياسية ، ويقترفن جرائمهن خدمة للأغراض السياسية لا للحب .. . !

وقد أدخلن في مجتمعات الإسكندرية ، نوعا من الظرف والدل والرشاقة الأنثوية ، لم يكن معروفاً في بلاد اليونان في عصور مجدها !

وصف الاسكندريه فى القرن التاسع عشر

ان وصف مدينة الاسكندريه القديمه ، الذى نقله لنا " سترابون " لم يعد يشكل فى بداية - القرن التاسع عشر - سوى اكوام من الانقاض ، وبعض بقايا شائهه للمنشئات الرائعه ، التى صنعت مجد الاسكندريه وازدهارها ، خلال عصر البطالمه المقدونيين ثم الامبراطوريه الرومانيه .

وعندما فتح القائد العربى " عمرو بن العاص " الاسكندريه عام ٦٤٢ م ، ليبدأ بها عصر الاسلام و " تعريب " المدينه ، بعد ان كانت يونانية الافكار والتقاليد والعماره والفلسفه والاداب والعلوم ، ارسل الى الخليفه " عمر بن الخطاب " بأن الله قد فتح عليهم مدينه بها أربعة آلاف من القصور ، وأربعة آلاف من الحمامات وأربعمائة من المتنزهات العامه ..الا انه أسس عاصمه جديده ، اختار لها ذلك المكان القديم ، والذى تخيره من قبل : ملوك الفراعنه ، بالقرب من مدينة " منف " .

وقد ارخى الظلام سدوله - قرونا طويله - على مدينتنا ، تداعت موانيها أمام عوامل الطبيعه ، واستخدمت بقايا اطلالها العظيمه فى وقف زحف البحر .. وقد وصف " فيفان دينون " بدقه - حالة المدينه - فى عام ١٧٩٨ ، راثيا إياها باسم " المدينه السوداء" فيقول : " عندما يفد السائحون لزيارة الاسكندريه ، تحدوهم الامال والطموحات لمشاهدة أطلال المجد القديم ، فانهم غالبا ما يصابون بخيبه شديده .. وقد كانت اول رحلة عمل لى بطبيعة الحال - هى تفقد الاثار المتبقيه من العصور الغابره والتى كانت شاهدا على ازدهار المدينه وعظمتها .. غير ان ما يستحق الزياره بالفعل ، فقط : عمود بومبى ، مسلتى كليوباترا ، والكاتاكوم (مقابر فى شكل سراديب وممرات تحت الارض) .. وقد شاهدت تلك الاثار فى نزهه بصحبة " دى ليسبس " قنصل فرنسا ....

بالقرب من برج الرومان ، توجد مسلتا كليوباترا ☜ (وهما من حجر الجرانيت الوردى ، الاولى كانت راقده بعيدا عن مكانها الاصلى الذى اقيمت عليه ، والثانيه كانت قائمه أمام معبد القيصر شامخه

☜يذكر الفنان الرحاله " مونتبارد " أن هاتين المسلتين قد نقلت احداهما الى مدينه لندن عام ١٨٧٥ - هديه من الخديو الى ملك انجلترا - والاخرى نقلت الى مدينة نيويورك .. ===

بتأثيرها القوى الذى جعلنى أشعر بهيبه ، وحجما هاتين المسلتين يتماثلان على وجه التقريب ، ويبلغ طولهما نحو ٨٥ قدما ، قدتا من قطعه جرانيتيه واحده ، وهما جديرتان بالمشاهده " !

ويصف " جورج ابرس " انطباعاته عن " الشواهد الاخيره " للمجد القديم ، والتى يمكن مقارنتها من حيث - الحجم والضخامه - بتلك الاعمال الفنيه الرائعه التى خلدها الزمان ، منذ عصور الفراعنه ، ويمضى قائلا :

" .. واذا وقفنا اليوم على الواجهه الشرقيه للبحر ، وبالتحديد عند النقطه المعروفه باسم الرمل - ثم امعنا النظر عبر مياه البحر المتوسط الزرقاء العميقه ، الى حيث تنشر الشمس أشعتها الذهبيه على قلعة قايتباى والمساجد والمبانى المشيده بالحجر الرملى .. فمن الصعب ان نتخيل ان هذا الخليج ذاته : كان مسرحا شهد غراميات كليوباترا مع قيصر ومارك انطونيو ، وأن شواطئه كانت مزدانه بصفوف من المعابد الرخاميه ، ومئات من الحمامات والقصور والمنشآت العامه والتى بلغت حدا من الترف والبهاء ، بين

Un Hiver

== Montbard : En Egypte , notes et croquis d'un Artiste , p.99

وقد جاء فى الوقائع المصريه الصادره بتاريخ يوم الاحد ٥ ربيع الاول سنة ١٢٩٢ الموافق ١١ ابريل سنة ١٨٧٥ ما يأتى :

" فى بعض الاخبار ان موسيو (الكساندر غاليس) حضر الان من لندره الى الاسكندريه بقصد اخراج الساريه المركوزه تحت التراب بالقرب من الساريه الاخرى التى فيها المعروفه بمسلة (قليوباتره) التى يقال أنها متواريه من اجل التدبر فى طريقة نقلها الى انجلترا ولكن ليس عندنا علم رسمى بذلك " .

ثم ورد فى الوقائع المصريه الصادره بتاريخ يوم الاحد ٤ ربيع الثانى سنة ١٢٩٢ - ٩ مايو سنة ١٨٧٥ ، ما يأتى :

" ومن اخبارها انه رخص الان الى موسيو (جمس الكساندر) المهندس باستخراج الاثر المدفون المعروف بالمسله الذى بجوار (قليوباتره) ونقله الى انجلترا وها هو جار البحث عن انسب الطرق والوسائط اللازمه لنقل هذا الاثر اليها بدون حصول ادنى خلل فيه ، لكنه ليس عندنا اخبار رسميه بذلك " .

غابات من المسلات والاعمده الرائعه ، وتلك الشوارع التى شهدت الاحتفالات ومواكب النصر (*) ، التى فاقت فى عظمتها مواكب روما ، وأنه على جزيرة فرعون ، حيث توجد الان - قلعة قايتباى - تم تشييد أول مناره عرفها العالم على هيئة تحفه رخاميه بالغة الروعه والجلال ، مما أهلها لان تكون احدى عجائب العالم القديم .. "

وفى واقع الامر ، أن الاسكندريه فى القرن التاسع عشر ، لم يعد فيها الكثير مما يبرز عظمة ماضيها فى العصر البطلمى ، أو حتى فى عهود انحسارها وتفسخها فيما بعد .. فلقد اصبحت فى منتصف القرن التاسع عشر ، مدينه حديثه بكاملها ، فيما عدا القليل جدا من أطلال المجد الغابر ، أى أنها تنتمى بالكامل الى القرن الماضى ، وتعكس شخصيتها الجديده ، كل ملامح العصر وفى رأيى أن " العقليه العاديه " لا تستطيع أن تتصور الماضى من تلقاء نفسها ، ولكن الامر فى حاجه الى قدره تخيليه عبقريه .. مثل قدرات " كنجزلى " و " بييرلوتى " لتقربة الى عقولنا ..

(*) من أشهر هذه المواكب التى سجلها التاريخ ، ذلك الموكب وتلك الاحتفالات التى اقيمت بمناسبة عودة القائد انطونيو وانتصاره الساحق فى حملته على ارمينيا ، وكان أنطونيو قد رغب فى أن يسترد هيبته فى الشرق ، بعد حملته الفارسيه الفاشله ، وكان ينسب فشله هذا الى " ارتاواسديس " ملك ارمينيا ، فقاد جيشه فى ربيع عام ٣٤ ق . م الى أبواب نيكوبوليس (مدينة النصر) ومنها زحف مسرعا الى ارتاكستا . حيث قبض على الملك و أفراد أسرته ، وجيء بهم مكبلين فى اصفاد من الفضه الى معسكر انطونيو ، الذى قرر ان يحتفل بنصره احتفالا يفوق تلك الاحتفالات المألوفه التى اشتهرت بها روما ، فسار انطونيو فى موكبه الرسمى فى شوارع الاسكندريه - عاصمة النصف الشرقى للدوله الرومانيه - بدأ من القصر الملكى فى (لوخياس) حى السلسله بالشاطبى برمل الاسكندريه - حاليا مارا بالطريق الكانوبى الموصل الى ابى قير الى معبد سيرابيس الكبير (كوم الشقافه بحى كرموز الان) وكان انطونيو راكبا - عربة النصر - تجرها اربعة من الجياد الشهباء المطهمه ، وجموع الشعب على الجانبين ، ومن امامه سار ملك ارمينيا ومعه اسرته الملكيه ن على اقدامهم ، مكبلين باغلال ذهبيه .. ومن خلف عربة النصر سار موكب طويل من الاسرى الارمنيين ومن خلفهم عربات محمله بالغنائم والاسلاب ، وفى المؤخره سارت فرق الجند من حلفاء الشرق وكوكبه من الفرسان ، وبين الهتاف الصاخب للشعب ، وصل الموكب الى السرابيوم ، لتقديم القرابين المعتاده للاله " سيرابيس " وامام السرابيوم==

ولكنا سنحاول ان ننسق صوره - مكتملة الملامح - عن الاسكندريه عبر القرن التاسع عشر ، من خلال تقارير القناصل الاجانب وانطباعات ومشاهدات الرحاله والكتاب والمؤرخين ..

وفى الحقيقه ، وبمرور الزمن ، فان القاهره قد سلبت من الاسكندريه رونقها واهميتها وطوى الاهمال " المدينه الذهبيه " التى كانت معقل حضارة الدنيا ، وزحفت الصحراء من الجنوب ، لتلتهم فى طريقها الاراضى المثمره والحدائق الغناء ، التى امتدت خضرتها الزاهيه حتى أديرة الرهبان بوادى النطرون ، ودفنت منشآتها العظيمه فى دوامات الرمال ، وأتت النيران على ما تبقى منها ، بالاضافه الى الدمار الذى اصابها قرونا طويله ، بفعل الغزاه من كل صوب .

وزائر الاسكندريه فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، كان لا يمكنه أن يتخيل أن الاسكندريه سيعود اليها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، شيئا من مجدها الغابر يوم كانت حاضرة البطالمه الكبرى ومدينة العلم والابداع ومركزا تجاريا عالميا ..

ويرجع الفضل فى ذلك ، الى " محمد على " بجهوده العظيمه المتواصله ، الذى جعل الاسكندريه تبدأ مرحله جديده فى تاريخها ، استفاقت فيها من حالة الركود والاهمال التى غرقت فيها ، منذ فارقها مجدها التليد ...ولكن كيف بدأت هذه المرحله .. أو ما يمكن ان نطلق عليه بداية البعث الجديدة للمدينه الذهبية ؟..

== شيدت منصه من الفضه ، وضع عليها كرسى ذهبى جلست عليه الملكه كليوباترا فى انتظار تقديم فروض الولاء والخضوع من القائد المنتصر وأسراه ، وبعد انتهاء الموكب اقيمت ولائم حافله لكل شعب الاسكندريه .

عندما اراد الباشا " محمد على " ذلك الزعيم العملاق من حكام مصر عام ١٨١٩ أن ينشىء اسطولا بحريا بهدف انتزاع استقلال مصر من تركيا ، اختار الاسكندريه كمقر للترسانه البحريه أو دار الصناعه ولذا فقد قام بتنفيذ العديد من الاعمال والتحسينات المكثفه وبدأ بتطهير قناة المحموديه ، وبوضع خطه لاعادة تأسيس الميناء الغربى وكانت هذه بداية العصر السكندرى الجديد أو بعث الاسكندريه . ومنذ ذلك الحين وعلى الرغم من افتتاح قناة السويس وتأسيس ميناء بورسعيد والقصف الذى تعرضت له الاسكندريه عام ١٨٨٢ فقد استمرت النهضه التجاريه لمدينة الاسكندر الاكبر حتى الآن ....

عادت الاسكندريه مره اخرى لتصبح مدينه من الدرجه الأولى فى الاهميه .وربما كان من الاجتراء على الحق أن نقول ان رأس المال المستثمر فى الاسكندريه اضخم من ذلك المستثمر فى القاهره ولكن من المؤكد من وجهة النظر التجاريه أن الميناء البحرى له اهميه تفوق اهمية رأس المال . فعمليا نجد ان محصول القطن بأكمله يستقر فى مخازنها حتى شمال الميناء واذا كانت القاهره هى مفتاح الاوضاع فى مصر من وجهة النظر الاستراتيجيه فان الاسكندريه : هى الباب المفتوح للدلتا بأكملها و وادى النيل * ، وميناؤها هو مركز الحياه الدافقه بها ، وعنصر عظمتها الحاضره ، وهى - عظمه تجاريه بحته - وقد وضع النشاط التجارى والتبادل السلعى وحركة الشحن بصمته على المدينه ، وأصبح الميناء يموج بالحركه الدائمه ، والقطارات المحمله تندفع من والى الجنوب ، ومراكب البضائع تمخر ذهابا وايابا من المحموديه الى النيل . وغابه من الصوارى والاشرعه والاقماع ، تواجه المشاهد فى كل مكان .. والسائحون يهبطون على أرضها من السفن البخاريه دون انقطاع ، ليهرعوا الى الفنادق أو الى قطار القاهره . وترى العرب فى زيهم الشرقى يحملون أو يدفعون امامهم اكوام من الامتعه . وترى التراجمه يتحدثون ويومئون وحمالوا الفنادق والوكلاء السياحيون يتدافعون فى حماس واستثاره ، والروافع والبكرات تعبىء المراكب وتفرغ حمولتها فى حمى من الطاقه ، والحمير والجياد والبغال تجذب العربات بقوه وقوافل الابل تنوء باحمالها ، وتسمع صيحات الباعه ودقات الاجراس ورنين الابواق ، و احيانا طلقات المدفع لتحية احد العسكريين القادمين الى الميناء من الاجانب وسط هذه البقعه التى يميزها

*E.Eggebrecht : Agypten , faszination und Abentever , PHVZ ,1982,PP.19-21

صخب الزحام ، وتتكرر نفس المشاهد يوما بعد يوم طوال العام ، وتسمع نفس الأصوات ، وآلاف القوارب والسفن تدخل الميناء كل عام لتفرغ حمولتها وتعبأ بحموله اخرى ثم تغادر الميناء وينقل كل محصول القطن المصرى الى القبارى أو ميناء البصل للتصدير حيث يشحن الى انجلترا وغيرها من البلاد كما يتم تخزين الحبوب وبذور القطن بكميات كبيره ، وتتحدد الاسعار تبعا للانتاج والمواصفات الخاصه ومما يبرز الطابع التجارى للحياه اليوميه فى هذه المدينه بشكل اوضح ، وجود المراكز الرئيسيه لمصلحة الجمارك والموانى والمنارات ومحكمة الاستئناف المختلطه والمقار الرئيسيه للعديد من البنوك والهيئات التجاريه ، وشركة التلغراف الشرقيه وهيئة الحجر الصحى ، بالاضافه الى مرور الصادرات والواردات الخاصه بمصر عبر هذا الميناء يوميا . ومن هنا كانت الاسكندريه ـ التى شهدت نموا سكانيا هائلا خلال القرن التاسع عشر* ثانى كبرى المدن فى مصر من حيث الاهميه وهى تتشابه مع جنوا ، و مرسيليا ، والقسطنطينيه ، باعتبارها احد الموانى الكبرى التى تسهم فى التبادل التجارى فى منطقة حوض البحر المتوسط ... وياله من فارق بين الاسكندريه اليوم والاسكندريه فى الماضى السحيق والايام الخاليه !

فى اطلاله عامه على الاسكندريه ، وبالتحديد فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر سنجد ان اقصى تقديرات الطول فى حدود المدينه كانت : ٢٥ ك/م (٥ و١٥ ميل تقريبا) والمساحه الكليه نحو خمسة الاف هكتار (٢٣٥ و١٢ فدان) .

والمنطقه الاكثر كثافه عمرانيه ، فى القلب من المدينه ، فيما بين الميناءين الشرقى والغربى ، وهى ما اصطلح المؤرخون على تسميتها بالمدينه التركيه ـ ما تبقى من مدينة الاسكندريه فى العصور الوسطى ـ وهى النواه التى نمت حولها المدينه فى العصر الحديث .. وحيث بدأ المركز التجارى النشط فى الزحف من جنوب حى الجمرك الى حى المنشيه ..

---

* كان تعداد سكان الاسكندريه عام ١٨٠٠ ، طبقا لتقدير جومار : ١٥ الف نسمه

E.F.Jomard: memoire surla population comparee de L Egypte ancienne et moderne, description de L Egypte, vol 2 pp . 96 – 100

ثم تزايد معدل النمو السكانى ليصل الى ٦٥ الف عام ١٨٤٥ ثم قفز الرقم الى ١٤٣ الف نسمه ، طبقا لتقرير كروشلى

ويخترق شارع فرنسا المدينه التركيه (حى الجمرك وحى المنشيه) حيث تشكلت بعض الاسواق التجاريه وشيدت بعض المساجد الاثريه لتضفى طابعا شرقيا على المنطقه ، ويمتد شارع فرنسا غربا حتى يصل الى مسجد الشوربجي ويعرف هذا الامتداد بشارع رأس التين ، والى اليمين شارع سيدى ابو العباس المرسى ، الذى ينتهى الى ما يعرف حاليا بميدان الجوامع (جوامع أبو العباس والعباس المرسى وسيدى البوصيرى وأبو فتح ونصر الدين وياقوت العرش) .

فإذا اتجهنا شرقا .. تراءى لعيوننا اكثر احياء الاسكندريه جمالا واثاره - حى الرمل - ذو الطابع الأوروبى فى العماره ومظاهر الحياه ، وحيث واحده من اجمل واقدم الحدائق الاخذه فى النمو ...

وقد شهدت ضاحية الرمل تطورا هائلا خلال نصف قرن ، فلم يكن بها سوى بلاج واحد " حمام زورو " ، بالقرب من موقع أوتيل سيسل حاليا وحيث كان البحر يصل الى هذه المنطقه قبل بناء رصيف الميناء الشرقى ، والتى شهدت فيما بعد تشيد عدد من الثرايات والفيلات الفخمه وكازينو " سان ستيفانو " الذى شهد أرقى الحفلات الارستقراطيه .

والى الغرب .. نجد المكس يلتحم بالمدينه .. وسكة حديد الخديو (مارابوت) تفتح طريقا فى منطقة مهمله مغموره بالرمال .. وعلى بعد حوالى ٥ ك/ م من المدينه ، على الطريق الرئيسى المؤدى الىالمكس ، نجد اقدم مدبغه انشئت فى مصر ، عام ١٨١٥ ، والى الغرب منها : المجزر العمومى وساحة الحجر الصحى للماشيه .

الى ان وصل تعداد سكان الاسكندريه الى : ٨٤٤ و٣١٥ الف نسمه ، بينهم : ١١٨ و ٤٦ من الاجانب طبقا للتعداد الثانى لمصلحة الاحصاء فى ١ يونيو سنة ١٨٩٧ .

وتعتبر المحموديه ـ هذا الممر المائى العظيم * الذى يتصل فى النهايه بالنيل ، الحد الجنوبى للمدينه . ويتم جلب اغلب محصول القطن المصرى عبر هذه القناه حيث يتم تفريغه فى ميناء البصل ثم يشحن الى أوربا . وتمتد فوق القناه عشرة جسور مفصليه ، سته منها حديديه واربعه خشبيه . وتمر السكك الحديديه العامه للدوله من المنطقه التجاريه باتجاه شرقى حتى القاهره حيث الخط الرئيسى وتمتد فوق هذا الخط جسور عملاقه فى القبارى ، ومحرم بك .

واذا نظرنا الى الاسكندريه من البحر لايسعنا الا أن نقول انها مدينه شديدة السحر والجاذبيه ، حيث تطالعنا المناره ، وقصر رأس التين ، ومآذن بعض المساجد وحصن نابليون ومركزه الاستطلاعى الوحيد ، وقد نستطيع اذا كان الجو صحوا ، ان نرى النصب التذكارى لبومبى وهو من المعالم البارزه التى تطل من اعلى على كتله من المنازل ذات الطابق أو الطابقين . ويعد الميناء ومصلحة الجمارك الضخمه الواقعه

---

* احتفر الاسكندر الاكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد خليج الاسكندريه القديم مبتدئا من مدينة شديا (النشو البحرى) الى الاسكندريه ، وذلك حتى يمد مدينته الجديده بالمياه من الفرع الكانوبى ، وقد فقد هذا الفرع اهميته بمرور الزمن اذ اصبح فى اخر الامر عباره عن ترعه صغيره ابتداء من زاوية البحر ، بينما اصبح فرع النيل الغربى هو ترعة بولبتين القديمه التى احتفرت حتى تمد بلدة بولبتين (رشيد) بالمياه ، لذلك صار من الضرورى وصل خليج الاسكندريه بفرع النيل الجديد ، وهكذا اضحت ترعة الاسكندريه عند الفتح العربى تمر بزاوية البحر والنقيدى ودنشال ودمنهور وافلاقه وكفر الحمايده والكريون والاسكندريه ، وقد حفرت هذه الترعه أو ظهرت عدة مرات فى أزمه متباينه بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى ، وفى أثناء ذلك كله غيرت الرتعه موضعها كثيرا فى جزئها الواقع بين النيل وكفر الحمايده بينما سار جزؤها الممتد بين كفر الحمايده والكريون فى مجرى الفرع الكانوبى القديم، اما بقية الترعه فقد اتخذت طريق الخليج الاسكندريه القديم ، ولما كان محمد على يريد انشاء ترعه تسير فيها السفن المشحونه بالغلال وغيرها من منتجات البلاد الى الاسكندريه عن طريق فرع النيل الغربى دون ان تمر ببوغاز رشيد لكثرة ما يقع فيه من حوادث الغرق ، فقد اتفق الرأى على تكليف شاكر افندى

فيه فى خليج محمى من الرياح غرب المدينه والى الشمال قليلا منها مقر للترسانه البحريه ، وترى غرب حاجز الامواج الجديد ، ونحو الجنوب مرفأ القطن والقمح بخطه الحديدى ، الذى يقسم الميناء الى جزئين جزء داخلى (او شمالى) وجزء خارجى (او جنوبى) وبالقرب منه سلسله من الاهوسه تظهر القناه المحموديه ، ويعتبر هذا الجزء اكثر اجزاء المدينه ازدحاما وصخبا ، فترى العربات ودواب الحمل من كافة الانواع فى حركه دائبه ، وعلى يمين المرفأ والقناه نجد المخازن الضخمه لميناء البصل ، وعلى اليسار مخازن القبارى حيث يخزن القطن وبذوره والقمح والفحم بكميات ضخمه ، فى انتظار التصدير فى اللحظه الملائمه ، وترسل المواد المستورده عبر النيل الى دمنهور او طنطا او القاهره . وبالقرب من هذه المنطقه يتم تبادل القطن فى ميناء البصل التى تمتلىء بالضجيج فى فصلى الخريف والشتاء حيث ينتظر التجار والسماسره بلهفه آخر أسعار ليفربول . وجدير بالذكر انه فى هذه المنطقه المكتظه بالصوامع نجد العد يد من المضخات التى عملت البلديه على اقامتها لمكافحة اى حريق يحتمل وقوعه .

ويمتد من الميناء عدد من الازقه والشوارع التى تؤدى الى شارع ابراهيم باشا وما وراء حصن نابليون أو حصن كافاريللى* وعلى ربوته المنخفضه حتى ميدان محمد على اضخم وارقى ميدان فى المدينه حيث طالعنا فى القلب منه وفى مواجهة البورصه ـ تمثال محمد على البرونزى على صهوة

= ثم ظهرت بعض العقبات ، التى جعلت محمد على يستدعى المهندس الفرنسى " كوستى " لاستكمال المشروع والذى انتهى من مهمته فى ديسمبر ١٨٢٠ ، واحتفل بفتح فوهه الترعه لدخول مياه النيل الى الاسكندريه فى فبراير ١٨٢١ وسميت الترعه باسم المحموديه تيمنا بالسلطان محمود الثانى .

* " حصن كافاريللى " كان كافاريللى احد القواد البارزين فى جيش نابليون ، والى جانب انه كان ضابطا شجاعا ، فقد كان ايضا مهندسا بارعا ، وكانت له اهتماماته بالعلوم الفيزيقيه وعلم الأخلاق والسياسه ، فقد احدى ساقيه فى حصار مدينة " مايانس " فى اكتوبر ١٧٩٥ ، ومات متأثرا بجراحه فى حصار عكا فى ٢٧ ابريل ١٧٩٩ ، وكان محبوبا من بونابرت وجنرالات وجنود الحمله واعضاء مجمع العلوم والفنون بالقاهره ولذا اطلق اسمه على هذا الحصن وفاء وتكريما لذكراه ..

حيث يطالعنا فى القلب منه وفى مواجهة البورصه ـ تمثال محمد على البرونزى على صهوة جواده * والى اليسار من البورصه ، شارع شريف باشا الشارع الرئيسى للاسكندريه ، حيث تصطف المحلات الانيقه على الجانبين ويمتد الشارع حتى شارع رشيد ويمضى فى طريقه بزاويه تحت اسم " شارع المحطه " المؤدى الى محطة السكه الحديد على مقربه من حصن كوم الديماس الواقع على ربوه تطل على المدينه ويحتلها الجنود البريطانيون . وتقع مراكز قيادة الجيش فى شارع رشيد وفى مواجهة شريف باشا يقع قسم البوليس الرئيسى أو " القراقول الانجليزى " .

وشارع رشيد شارع انيق يحتوى على فندقين حديثين ومبانى البلديه ** التى نقلت فيما بعد الى الميناء الشرقى . ويقع متحف الاسكندريه فى شارع فرعى صغير شمالى مبانى البلديه حيث يضم العديد من القطع الآثريه التى عثر عليها على مقربه من المدينه ، بما فى ذلك ثور (عجل) ابيس بالحجم

---

* امر الخديو اسماعيل المصور (الخواجه جاكمار) بعمل هذا التمثال ، تخليدا لذكرى جده محمد على باشا ، و نصب فى ميدان المنشيه (ميدان محمد على ـ ميدان القناصل) الذى أنشأه والده ابراهيم باشا ، وقد وضع التمثال فى مكانه المحدد فى اغسطس عام ١٨٧٤ .

** انشئت " لجنة تنظيم الاسكندريه " فى عهد محمد على ، بهدف النهوض بهذه المدينه الهامه والاشراف على نظافتها ـ التى كانت مضرب الامثال ـ وتوافر الشروط الصحيه بها وتنمية مظاهر الجمال فيها وتهوية المنازل ، وكان القنصل البريطانى هو رئيس اللجنه بصفه دائمه ، ومعه عدد من المهندسين الاوربين وبعض المسئولين المصريين بالمحافظه ، ويخضع الوالى ورجال حكومته لأحكام هذه اللجنه ، ثم تحولت الى " مجلس البلديه " فى عهد اسماعيل باشا ، وتوسعت مجالات اشراف البلديه واختصاصاتها ، منها نقل الجبانات والمدافن الى خارج اسوار المدينه ، وكنس ورش الشوارع يوميا و توسيعها ، وتخطيط وتمهيد طرق وشوارع جديده ـ والاشراف على البناء والاضاءه والرى وبيع اراضى الدوله ، والعمل على تيسير حركة المرور بالمدينه ، والاهتمام بالحاله الصحيه مما كان لةاعظم الآثر ثم الاشراف على خدمات الاتصال والمواصلات كالتليفون والترام ، والاخذ بأسباب تحسين مستوى الخدمات عموما ، وحتى عام ١٨٩٥ كانت البلديه قد انتهت من توسع العديد من الطرق القديمه وانشاء طرق حديثه ، من اهمها : طريق المكس الرئيسى الذى يربط الضاحيه بغرب المدينه،وطريق السيوف،وشارع عبد المنعم،والشارع الجديد بالشاطبى وشارع سكة الرمل وغيرها ..وابطل تماما الذبح داخل المنازل ، واضيئت جميع الشوارع والاحياء بالانوار الغازيه ═══

الطبيعى بحجر الجرانيت ، وتستمد المجموعه اهميتها من حيث القائها للضوء على الفن الاغريقى الرومانى وما يدين به هذا الفن من تأثيرات الى العبقريه المصريه ، حيث اسهمت المحاورات الدينيه و الفلسفيه فى قاعات المتحف العظيم - ابان عصر البطالمه - فى ظهور حركه فنيه جديده انبثق منها فيما بعد اسلوبان مميزان خرج كل منهما من الاسكندريه ، وهما الفن البيزنطى والفن القبطى والذى يعرف بصفه اعم بالفن العربى . وسوف يدرك اى دارس للفن البطلمى فى مهده ، وما نتج من صراع بين الفن الشرقى والفن المسيحى فى القرون الثالث والرابع والخامس الميلادى .. ان مدارس الاسكندريه تعتبر حلقة الوصل بين الفن الاغريقى الرومانى والفن المصرى من ناحيه ، والفن البيزنطى والقبطى العربى من ناحيه اخرى ...

وكان المتحف القديم يقع ايضا فى شارع رشيد بالقرب من الموقع الذى يحتله الان ميدان سانت كاترين (المنشيه الصغرى) حيث الكاتدرائيه الرومانيه الكاثوليكيه ، ولاشك فى ان المتحف اوجامعة الاسكندريه كانت صرحا ضخما يأوى اليه الالاف من الطلبه . وقد تكون اقرب الى جامعاتنا الحديثه كالازهر مثلا . وكانت المكتبه الشهيره - بما تضعه من كتب ومخطوطات نادره - بالقرب من ميدان محمد على (المنشيه) الحالى تقريبا . ولكننا لانجد الان اى اثر للمتحف البطلمى او المكتبه او القصور والمعابد التى كانت يوما ما تضفى جمالا ورونقا على هذه المنطقه .

ولا شك ان كل من الرومان واليهود والمسيحين والعرب كان له يد فى تدمير آثار الاسكندريه ذات الشهره القديمه الواسعه . وقد ذهبت آثار الجمنازيوم وبانيوم السيما حيث دفن الاسكندر وكذا المسرح .. كل هذه الآثار التى كان البحر خلفيه لها لم يعد لها وجود .

═ كما اشرفت ايضا على اقامة حى للعمال على الاراضى الواقعه بجواد عمود الصوارى ، والتى اشتراها اسماعيل باشا ووهبها للحكومه ، على ان تخصص حصيلة اجور المساكن لانشاء مستشفى مجانى للعمال ، كما انشىء المجزر العمومى بالمكس ، ومجمع للصرف الصحى يصب عند حصن قايتباى والسلسله ، وتحويل عدد من الحصون القديمه الى متنزهات عامه .

واذا عدنا الى ميدان محمد على ، عن طريق شارع توفيق باشا ، الموازى لشارع شريف باشا ، نتذكر ان هذا الميدان قد اصيب باعنف الخسائر نتيجه لتدمير البريطانيين له عام ١٨٨٢ ولم يعد باقيا من المبانى القديمه السابقه على هذا الهجوم سوى كنيسة سان مارك التى تضم تمثالا نصفيا للجنرال "ايرل" الذى سقط فى " كيربيكان " عام ١٨٨٥ ، وكذلك ساحات القضاء التى تضم محكمة الاستئناف للملل المختلطه . الا ان هذا الدمار تم اصلاحه وبنيت المبانى الحديثه التى تحيط بالميدان وتصد عنه صقيع البحر . كما اقيمت المقاهى المفتوحه فى الحديقه تحت اشجار النخيل ، وهنا يجلس " الافندى " فى الصيف يحتسى قهوته ويحدق ببصره فى الماره من السيدات وأغلبهن من اليونانيات والسوريات أو الايطاليات والائى اضفى جمالهن على المدينه طابعا خاصا كما أضفى جمال كليوباترا عليها رونقا فى سالف الزمان ...!

ومرورا بشارع البريد يصل الزائر الى مكتب البريد العمومى ✱ ومبناه الاضافى على الواجهه الشرقيه للبحر ، وفيه ايضا الكنيسه الاسكتلنديه والكنيسه الفرنسيه البروتستانتينيه أيضا ، بالاضافه الى ثلاثة فنادق وقاعات للموسيقى .

✱ فى ٢٩ اكتوبر عام ١٨٦٤ ، تم توقيع عقد بيع بين مسيو " موتسى " مدير مكاتب البريد الايطاليه بمصر وبنك " ديرفيو " ، اشترى البنك بقتضاه تلك المكاتب لحساب الحكومه المصريه ، نظير مبلغ ٤٦ الف جنيه ، وسلمت المكاتب البريديه فى ٢ يناير عام ١٨٦٥ ، وصدر الامر الخديوى باقرار الصفقه فى ١٤ يناير ، وضمت ارباح المكاتب الى ايرادات الدوله ، وعين " موتسى بك " مأمورا لادارة مصلحة البريد الخديويه ، والغيت مكاتب البريد الاوربيه فى ميريات مصر ، بعد ان اشاد القناصل الاجانب تقاريرهم الى حكوماتهم ، بحسن ادارة المصلحه وتقديرهم لوسائل تحسين نظام البريد المصرى .

وفى ذلك الحين كان هناك بريد يومى بين القاهره والاسكندريه فى زمن يتراوح بين ٣٠ ، ٣٦ ساعه وكان يعتمد اساسا على الرسائل الحكوميه ، كما كان لتجار الاسكندريه بريد خاص يصل الى القاهره ثلاث مرات اسبوعيا ، وتوزع الرسائل فى اليوم الرابع ، بالاضافه الى خدمة التلغراف ...

اما الميناء الشرقى فهو خليج رائع كان ميناء رئيسيا للقدماء . والطرف الاخير للاسكندريه الحديثه وهو على هيئة " قادوم " وكان فيما سبق " جزيرة فرعون " الملحقه بالارض الرئيسيةبواسطة سد عظيم يخترقه ممران ويطلق عليه " الهبتاستاديوم " ومع مرور الزمن ونتيجه للضغط الواقع عليه من الامواج والاحجار المكسره المستخدمه فى سد الفجوات ، ازداد السد إتساعا باستمرار حتىاصبح اليوم شريطا عريضا ، يزيد عرضه عن الميل . وعند الطرف الشرقى للخليج تقع شبه جزيرة "لوقيا" التى كان القصر الملكى مقاما عليها وكذا معبد ارثميس الذى الحقت به محطه مياه " دياباترا " وامتدت حتى جزر طوروس فى مواجهة المناره الشهيره ، ومن ثم كان الميناء عمليا مستدير الشكل محميا من الامواج والنوات ، ومنذ تلك العصور اختفت جزر طوروس (وكذا جزر انتيرودوس) والدياباترا والجزء الاكبر من شبه جزيرة لوقيا حتى الشمال حيث يقع الان حصن السلسله ،واصبح الخليج مفتوحا فى مواجهة البحر ولم يعد صالحا للاستخدام كميناء ، واصبحت قوارب الصيد هى الوحيده المستفيده بهذه المياه ، وأعدت الحكومه خطه لتطوير محطات المياه * وانشاء خزانات جديده، لتشمل خدمات هذا المرفق كل ثغر الاسكندريه . وتم بناء سور دائرى قوى فى الوقت ذاته لمنع البحر من الزحف على الارض واغراق الشوارع المنخفضه ، حيث تتكسر الامواج على الجزء الاعلى منه فى اليوم العاصف ، ويمتد هذا السور من حصن قايتباى حتى حصن السلسله . ومن خلال هذه الاجراءات تم استصلاح جزء كبير من البحر واصبح متاحا لاغراض البناء .

---

* فى ١٦ اكتوبر عام ١٨٥٧ ، منحت الحكومه المصريه ترخيصا الى المهندس " كورديه " لتشكيل وادارة شركه باسم : " شركة تقسيم المياه المصريه ببلدة الاسكندريه " وقد نصت بنود الترخيص على إلزام الشركه : بانشاء احواض لتنقية المياه ، ومضخات قويه تكفى لتوريد ٠٠٠و١٠ م من الماء فى اليوم الواحد ، وانشاء خزان للمياه سعته ٠٠٠و٥ م٢ ومد شبكة من المواسير الصالحه للتجديد - لتوزيع المياه ، وتخصيص منفذ للمياه فى كل شارع لمقاومة الحرائق ، وأن تخصص الشركه للحكومه المقدار اللازم لرش الشوارع ، وتغطية احتياجات الطوابى والثكنات والمستشفيات والمنشآت العموميه و والمساجد والسرايات ، كما نص البند الثامن على عدم اعتبار الرخصه الممنوحه للمسيو كورديه : امتيازا يحول دون وجود شركات اخرى منافسه بخصوص توزيع المياه بالمدينه .. (أمين سامى : تقويم النيل - ج٣ ص ٢٤٥ - ٢٤٦) .

وفى اتجاه الشرق بامتداد البحر نجد فندق وندسور وعلى مقربه منه " قاعة إيفل " واحده من اكبر قاعات الموسيقى بالمدينه ثم ساحة السوق القديم ثم نمر بعدة قاعات انشئت حديثا الى الجنوب وهى مصممه على أحدث النظم وهى الارقى فى نوعها فى مصر . وفيما بين البحر وشارع شريف باشا يتعامد عليه عدد من الحارات غير المنتظمه وشارع المحطه المزدحم دائما وبه خط للترام وهو اعظم مركز تجارى فى المدينه . وتقع شركات الشحن والتامين والبنوك ومكاتب الاستيراد والتصدير فى ذلك الجزء الاوربى من الاسكندريه .. ومكاتب جريدة " الاجيبشيان جازيت " و " الاصلاح " و " لى نوفل " و " لو فار دالكسندرى " ايضا فى هذا المكان ، بالقرب من شارع محطة الرمل . كما يتضمن أيضا مكتب البريد الرئيسى ، كذلك نادى الاتحاد البريطانى ونادى سبورتنج كما تطل ملحقات نادى الخديو على مبنى البورصه ونادى محمد على فى شارع رشيد ، وفى نهاية شارع محطة الرمل وفى مواجهة الشاطىء نجد العديد من المقاهى الرائعه ، ذات القاعات الرحبه والابواب المتعدده والتى تصلح مكانا مفضلا للعشاق ! .. خاصة فى امسيات الصيف حينما تعزف الموسيقى الاوركسترالية .

وتمتد خطوط الترام - بخدماتها المتميزه - الى ضاحية الدوله الحديثه وتتجه شرقا مرورا بكلية فيكتوريا والقنصليه البريطانيه والمستشفى المصريه والمدرسه اليونانيه الانيقه بالقرب من الشاطبى . وهذه المدارس بنيت على الطراز الاغريقى القديم بالحجر الابيض وتعتبر من اكثر مبانى الاسكندريه رقيا .

ويصل الطرف الشرقى لواجهة البحر حتى طابية السلسله . وبالقرب منه نجد المجازر القديمه ومكتب صحى حديث . واذا اتجهنا غربا من مكتب البريد حتى " الهبتاستاد يوم " القديمه ، نمر بالقرب من قصر الحاكم (المحافظه) * ثم نصل الى الاحياء الشعبيه للمدينه بازقتها المتعرجه .. وحيث تكثر المساجد والكتاتيب و

---

* كانت وظيفة حاكم الاسكندريه ، على جانب كبير من الاهميه ، نظرا لوجود الاسطول البحرى ودار الصناعه ، والميناء ومخازن الحكومه ، وكثرة السكان من وطنيين واجانب ، وكذلك لاتخاذ الاسكندريه مقرا للحكم فى معظم الاحيان ، ومقاما دائما لبعض النظار (الوزراء) واشهر من تولى هذا المنصب هو (محرم بك) صهر محمد على ، وعمر لطفى باشا فى عهد الخديو اسماعيل .. وكان عمر لطفى عالما قانونيا ومن طليعة مؤسسى نقابات التعاون فى مصر ، واشتهر بأفضل الخصال ، كما كان غيورا على وطنه محبا لبلاده ، وقد رثاه شوقى

===

المشربيات والبازارات الجذابه .. وعلى الرغم من انها لا تشبه بازارات القاهره من اى ناحيه ، الاانها تتمتع بجاذبيه خاصه بطابعها الشرقى المتميز فى الاطار العام للمدينه ، على ان المساجد لاتتميز بسمات فنيه ذات قيمه ..

ويقع مبنى المحافظ مع بداية جزيرة فرعون ونهاية " الهبتا ستاديوم " على الرغم من استحالة التمييز بينهما اليوم . ويمتد شارع رأس التين غربا من هنا حتى قصر الخديو الصيفى الذى يحمل نفس الاسم (قصر رأس التين) والمبنى على الطرف الشمالى الغربى من شبه الجزيره بين ثكنات رأس التين والمناره الحديثه . وهذا القصر عباره عن سلسله من المبانى ذات الطابقين وهو شرقى الطراز ويطل على الميناء الغربى ومن الشمال على البحر . وهو بعيد عن المناره التى يجرى نادى اليخوت سباقه السنوى بالقرب منها . وبالقرب من هذا المكان نجد المقار الرئيسيه لنوادى السباحه السكندريه والعديد من مقار المعاهد . وهذا الموقع البارز يحكم كلا من ميناء الاسكندريه والطرف السكندرى الشبيه بالمطرقه (فرعون أو رأس التين) فيميزه بالقوه والمنعه ، وعلى امتداد البحر ، من العجمى فى الغرب الى أبو قير فى الشرق ، كان هناك عدد من الحصون أو الطوابى الدفاعيه القديمه ، وقد أزيل عدد من الحصون التى اقيمت فى عهد محمد على ، واستحدثت حصون اخرى بدلا عنها ، اشهر حصون وطوابى الاسكندريه طابيتا العجمى البحريه والقبليه ، وطوابى الدخيله والمكس والفنار والهلاليه وقايتباى وكافاريللى والقمريه والآطه وكوم الدكه وأم كبيب و(أده) وحصن ياود (كليوباترا) والملاحه والسلسله والرمل والمعموره وأبراج ابو قير .. وهى النقاط المميزه التى يمكن منها الدفاع عن المدينه .. أو قصفها فى حالة حدوث اى شغب .. وهذه الحصون والقلاع كانت بالطبع فى حوزة البريطانيين عقب احتلالهم لمصر ...!

وكان الخديو يصل الى رأس التين بالقطار ، حيث أنشىء خط حديدى من محطة بضائع القبارى حتى قصر الوالى ، كما ان امتداد هذا الخط ومروره بين قناة المحموديه وبحيرة مريوط يربط بين الخط الرئيسى للقاهره عند سيدى جابر والملاحه .

ومن ميدان محمد على أو سانت كاترين يمر شارع أبو الدرداء جنوبا خلف الكنيسه القبطيه والارمنيه ،والمستشفى الاوربى ، وجامع سيدى عامر ، وربما كان هذا المسجد اوسع وارقى مساجد الاسكندريه ـ حتى موقع السيرابيوم القديم ...

=== بقصيدتين ، كان مطلع الأولى : قفوا بالقبور نسائل عمر ... متى كانت الأرض مثوى القمر ؟!

والقصيده الثانيه مطلعها : اليوم أصعد دون قبرك منبرا ... وأقلد الدنيا رثاءك جوهرا

(الشوقيات : ط . بيروت ، ج٣ ، ص ٨٣ ـ ٨٧) .

ووفقا لاى مقياس .. كان هذا المعبد واحدا من اجمل مبانى العالم القديم ولا يفوقه جمالا الا " الكابيتول " فى روما و " الاكروبوليس " فى اثينا . ولم يعد باقيا من هذا المبنى اليوم الا تمثالا او اثنين من الجرانيت لابى الهول على سفح ربوه ، ويتوجهما النصب التذكارى لبومبى .

والى الجنوب الشرقى من الاسكندريه تمتد حدائق سير جونز (انطونيادس) المنمقه ، وقد كان انطونيادس أشهر تجار المجوهرات والأحجار الكريمه الاثرياء الذين ظهر كرمهم الواضح نحو هذه المدينه ، وكان مرتبطا بعلاقات وثيقه ومعاملات مع الخديو اسماعيل . وبالقرب من هذه الحدائق ، شيدت البلديه حديقه واسعه تعرف باسم حدائق النزهه . وتعتبر هذه المنطقه من الضواحى السريعة النمو ، التى تصبح شعبيه جدا اثناء شهور الصيف ...

وبالقرب من شاطىء المحموديه تشاهد عدد من " الدهبيات " الجميله وسفن الشحن وبعض الفيلات الفخمه التى شيدت على ضفة القناه ، ويسهل الوصول اليها من وسط المدينه مرورا بشارع محرم بك ثم نعبر شريط السكه الحديد المتجه الى القاهره على جسر قريب جدا من المحطه الرئيسيه حيث يمكن الوصول الى ميدان محمد على فى دقائق . وفى حى محرم بك مستشفى ألمانى تديره الاخوات " دياكونيس " وكان هذا المستشفى يتحمل مصروفات علاج المرضى الفقراء .

ويوازى جنوب شارع رشيد ، شارع المانيا ، وكانت به عربه كهربائيه تصل حتى " النقطه المستديره " وعند التقاء الشارعين السابقين تقريبا مع شارع النبى دانيال توجد مدرسه ومدافن يهوديه ، كما توجد الكنيسه القبطيه لسان مارك الارستقراطى اليونانى ومستشفى ومسجد رائع يحتوى على مقابر سعيد باشا والامير حسن بالأضافه الى مدرسه المانيه ومسرح الهمبرا ثم مسرح " زيزينيا " الذى نلمح امامه بعض عربات " الكاروزن" الفخمه التى تجرها الجياد ، ينزل منها باقه من حسناوات الطبقه الثريه ، يرتدين احدث الازياء الاوربيه وافخر انواع الفراء ، وعلى صدورهن تتألق المجوهرات والاحجار الكريمه يدلفن الى المسرح لمشاهدة عروض الاوبرا الايطاليه .

وعند نهاية شارع المانيا وقبيل الوصول الى مدافن اليهود ، نجد ربوه يقف عليها عمود تذكارى من الجرانيت اقامته البلديه فى مواجهة المستشفى الحكومى تخليدا لسقوط الحركه المهديه فى السودان والاستيلاء على الخرطوم . وعلى ربوه متاخمه لها وتطل على منظر جميل للميناء الشرقى والهبتا ستاديوم ورأس التين ، يوجد عمود حجرى ابيض اقيم خصيصا تكريما للملكه فيكتوريا !

وفيما وراء التكنات المصريه عند الانعطاف الاخير لشارع ألمانيا نجد المدافن الاوروبيه أو المسيحيه لمختلف النحل التى تمثل سكان الاسكندريه . ولابد من دراسه تفسر لنا هذا التعدد فى الملل والاديان فى الاسكندريه والصراع فيما بينها . فقد تصارع كل من اللاأدريين * والارثوذوكسى والستيوراتيين ** والاقباط والمجسمين *** والبطالمه الجدد لصالح مذهب او غيره من المذاهب الدينيه ، وينبغى ان نضيف الى ذلك اليهود والمصريين والاغريق والرومان واتباع اريوس واتناسيوس وجوليان المرتد وقد اختفت عدة طوائف من هذا النوع تماما ويبقى الان الانجليكان والرومان الكاثوليك واعضاء الكنيسه الارثوذكسيه اليونانيه والقبط والارمن ولهذه الطوائف مدافنها فى المدينه والعديد من الاثار الجميله التى تزيد هذه المدافن المعده للراحه الابديه !
وخلف ذلك توجد ساحة دفن عربيه صغيره ، ولكن المدافن الوطنيه الرئيسيه توجد فى شمال مسلة بومبى ، ويرجع هذا الترتيب للمدافن الى التقاليد المتوارثه لان الاسكندر عندما أسس المدينه ، كان الجزء المصرى منها يقع غربا وكان يسمى راكوتى المشتقه من كلمة Ragotit (التى كانت الاسم القبطى للاسكندريه) وكان الحى اليهودى يقع شرقا حيث المدرسه اليهوديه والمدافن اليهوديه الموجوده حتى يومنا هذا وحيث ان المدافن المسيحيه انشأت فى عصر لاحق فقد اقيمت شرق بوابة الشمس حيث لا تزال توجد حتى الان .
وفيما يختص بالكيان الاجتماعى والمظاهر العامه للحياه فى الاسكندريه فالسكان خليط متنوع جدا . ومن بين الطبقات الفقيره كان المصريين والعناصر الاجنبيه المختلطه - التى ما كان لها ان تحلم بالنجاح فى القاهره - كما استطاعت الطبقات الراقيه ان تتعايش جنبا الى جنب فى ود ظاهر ، وقد كانت السياسه تلعب دورا صغيرا نسبيا فى الحياه اليوميه نتيجه لنفس الاسباب المحتمله . فى حين كانت كافة الاعتبارات مثل العلوم والفنون والاثار تختنق بفعل النشاط التجارى ، وكانت شئون التجاره والتبادل السلعى وحركة المخزون والاسهم محور الاحاديث الدائمه فى النوادى والشوارع والترام والقطارات ...

ومعظم السائحون الذين يصلون الى الميناء الغربى ، يهرعون الى القاهره المشرقه والاقل مطرا والتى فيها الكثير مما يمكن مشاهدته والاقل من الحديث فى شئون التجاره ! فليس مطلوبا البقاء فى الاسكندريه لدراسة الفن الاغريقى مثلا ... فهم بعد قضاء يوم واحد فى شارع شريف باشا يسافرون جنوبا بأسرع ما يمكن .
ونتيجه لذلك فان الاسكندريه قد تصبح كئيبه فى الشتاء ، ويعتبر هذا الموسم مناسبا للسياحه فى مصر ولكن اثناء الصيف عندما تشتد حرارة القاهره بحيث لايمكن احتمالها كان الالاف من المصطافين من طبقات معينه يقضون شهرين او ثلاثه على شواطىء البحر المتوسط .. وهذا بالتالى يعتبر موسم المرح والانطلاق فى الاسكندريه ...

---

* مذهب دينى يعتقد بان وجود الله وطبيعته امور لا سبيل الى معرفتها .

** انصار جيمس الثانى ملك انكلترا بعد ثورة ١٦٨٨ .

*** الذين يخلعون الصفات البشريه على الله .

ومن انشطة الترويح المفضله ، المسابقات الرياضيه على الشاطىء ، ورياضة اليخوت ، والتجديف والرحلات الخلويه والمسارح وزيارة قاعات الموسيقى وحفلات الموسيقى فى المقاهى .
وبينما نجتاز الشاطبى وكامب شيزار التى اكتشفت بها المقابر الاغريقيه الرومانيه ـ نشاهد ترام الرمل الشهير يجرى شرقا بامتداد الشاطىء . ثم نمضى مع امتداد اشجار النخيل والتين بمحاذاة نادى سموحه حتى نصل الى سيدى جابر . وهى محطه على خط السكه الحديد الرئيسى الى القاهره متصله بفرع سكة حديد قصر الخديو بالرمل وابو قير ، ورشيد ، أما " قرية سيدى جابر " فتقع على بعد ربع ميل وبالقرب من البحر وهذه القريه تشتهر بسوق سنوى صاخب يقام فى اغسطس من كل عام ، كما تشتهر ايضا بالتين الحلو المذاق وتزرع هذه الفاكهه الحلوة المذاق فى كل المنطقه بكميات ، ويمر الترام عبر بساتين من التين ، بينما يكاد البحر يرى من اليسار وشواطىء بحيرة مريوط على اليمين .. وقبيل بولكلى مباشرة ، حيث يقيم اعضاء المستعمره الانجليزيه الصغيره فى مساكن ، عباره عن فيلات جميله تحيط بها الحدائق المطله على ستانلى بك نجد فندق " كارلتون " الشهير .. والجزء الواقع من هنا حتى سان ستيفانو ، يعتبر اجمل الاحياء التى يجتازها الترام باعتبارها سلسله متصله من الفيلات التى تطل من وراء اكام الشجر المحيطه بخط الترام . وفندق " سان ستيفانو " هو فندق فخم وكازينو كانت تديره شركة نونجوفيش للفنادق وتعتبر الشرفه الواسعه المطله على البحر من الاماكن الحديثه المفضله لالتقاء العشاق فى شهور الصيف بعد الظهر وفى المساء حيث يمكن الاستمتاع بالرقص والولائم والموسيقى وغير ذلك من البرامج اليوميه ..

وكان يسمح بلعب القمار فى احدى غرف الفندق الذى يتضمن ايضا مسرحا وصالة رقص فسيحه ، ويوجد للحكومه فى الفندق ايضا بعض المكاتب والمقار اثناء فصول الصيف ، وتقع نهاية الترام عند قصر والدة الخديو حيث تقيم اسرته اثناء الصيف ، وعندما يرغب الخديو فى ممارسة شئون الحكم فانه يستقل القطار الى سيدى جابر ومن هناك يستقل عربه الى قصر رأس التين .. وبينما يقترب الوقت من الخامسه مساء يخرج الناس فى عربات الحنطور الانيقه الى سان ستيفانو مجسدين مشهدا مبهجا على طول الطريق . وفى رحله تستغرق خمس وثلاثين دقيقه بالقطار من سيدى جابر يصل المسافر الى " قرية ابى قير " * المهمله على خليج يحمل نفس الاسم . ويقع هذا المكان الصغير الجميل على الرمال ومن خلفه البحر المتوسط بلونه الازرق الساحر .

* هنا كان الانتصار التاريخى الذى حققه الاميرال " نلسون " قائد الاسطول البريطانى فى البحر المتوسط ، على الاسطول الفرنسى ، ومعركة ابو قير أو معركة النيل كما اطلق عليها الانجليز ، يعتبرونها احد انتصاراتهم الحربيه الكبرى فى تاريخهم .

وعلى مقربه من هذا المكان ايضا كانت مدينة " كانوبيس " قديما بما لها من جمال وجلال تقع على الفرع الكانوبى للنيل . وقد اختفى كل من هذه المدينه وهذا الفرع وانغمرا فى الرمال الساخنه .
وبعد ابو قير بثلاثين ميلا يمكن ايضا الوصول بالقطار الذى يسير فى شريط ضيق من الارض بين البحر وبحيرة ادفو الى قرية رشيد على الفرع الغربى للنيل . وفى عصور سابقه كانت توجد مدينة " بولبيتين " فى هذا الموقع ، وبلغت رشيد شهره عالميه باكتشاف الفرنسيين للحجر المنقوش الشهير عام ١٧٩٩ الذى سمى بنفس اسم المدينه . وهذا الحجر الموجود الان فى المتحف البريطانى هو حجر جرانيتى يرجع الى القرن الثانى قبل الميلاد ومنقوش باللغات الهيروغليفيه والديموطيقيه والاغريقيه . وبفضل هذا الاكتشاف اصبح من الممكن فك طلاسم الكتابه الهيروغليفيه لقدماء المصريين .

اما المكس فهى ضاحيه غرب الاسكندريه يمكن الوصول اليها بالترام من ميدان محمد على ، وتقع القبارى فى الطريق بقصرها الذى تحول الى حجر صحى وكذلك مقابرها البطلميه ، ويمكن المرور ايضا بحمام كليوباترا ، وفى الطريق قرية الورديان ثم نمضى حتى نصل الى محطة مريوط اخر خط السكه الحديد . وبعد اجتياز المجزر الجديد ، وباستخدام الحنطور نصل الى المكس وهى قرية صيادين لها شاطىء جميل وكازينو كبير ويزورها المصطافون الفقراء كثيرا فى الصيف . وعبر هذا العنق الضيق من الارض بين البحر وبحيرة مريوط ، نجد عددا من الحصون لم يعد بعضها يستعمل الان ، وفيما وراء ذلك تقع بعض المحاجر التى تم استغلالها لخدمة الميناء وبعض المشروعات الاخرى والى الغرب قليلا ينتشر الجفاف والمناخ البرى فى اماكن يندر زيارتها ويقطنها عشائر من البدو الرحل ، الذين كانوا يشغلون انفسهم احيانا بانتهاك القوانين والاعتداء على الاوروبين او مهاجمة المنازل المعزوله والسطو عليها .
وعلى مسافة اميال قليله من " بهيج " وهى محطه على الخط اكتشف عالمان المانيان هما " كوفمان " و " مستر فولز " فى صيف عام ١٩٠٥ اطلال مدينة " سانت ميناس " القديمه ووفقا لتراث الكنيسه فقد استشهد هذا القديس فى " فريجيا " عام ٢٩٦ م ونقل جسده الى الاسكندريه ، حيث وضع على ناقتين تركا بعد ذلك ليتحركا وفقا لمشيئة الرب ، فتوقفا فى الصحراء بالقرب من بعض ابار الماء العذب ، وهناك دفن القديس الذى اصبح الاب الراعى لليبيين وتم بناء كاتدرائية كاثوليكيه (باسيليقا) . وشيدت من حولها منازل وكنائس وقصور حتى تكونت مدينه عامره ، واصبحت مكانا هاما يرتاده الحجيج من كل صوب ثم تعاقبت عليها الخطوب والتهمتها الصحراء التى لا تشبع وانمحت من الوجود ..

وبفضل سخاء قنصلية فرانكفورت ، بدأ هذان العالمان سلسله منظمه من عمليات التنقيب فى هذا الموقع ، كان من نتيجتها اكتشاف عدد من الاطلال الهامه ، وبعض الاثار الدينيه القديمه .. وتم اكتشاف عدد من الاتونات التى كانت مخصصه لاحراق قوارير العطور المقدسه ... وعدد من الاباريق التى كان يحفظ بها ماء سانت ميناس العجيب والذى كان المطلب عليه شديدا بين الحجاج قديما .. واسفرت ابحاث اخرى عن اكتشاف الجزء الدائرى للكاتدرائيه الشهيره ، وكذا السرداب والعديد من تيجان الاعمده وافاريز ودير سانت ميناس الذى كان ارقى دير فى شمال افريقيا .

ويعتبر اكتشاف مدينة سانت ميناس احد اهم الاكتشافات التى تمت فى مصر ...

فالى جانب ان هذه الاطلال وغيرها هى شواهد تاريخ ومجد قديم ، فانها توفر ايضا قدرا من التباين بين الاسكندريه قديما وحديثا .. التى لاتشبهها اى مدينه اخرى فى مصر ...

توقيعات أوروبية في دفتر ذكريات الإسكندريه

رؤية وملاحظات " مونتبارد " عن الاسكندريه

حرص الفنان الرحاله الفرنسى " مونتبارد " على تقديم سجل شامل للتعرف على مصر من خلال ملاحظاته الاجتماعيه والسياسيه والجغرافيه ، فى اطار منهج وصفى علمى ، فلم يجنح الى الخيال وهو يقدم صورا من مصر الى القراء الاوربين ، بالرغم من ادراكه لجاذبية الخيال لمعظم هؤلاء القراء ، كما كان مؤمنا بأن فن الرحلات ينتمى الى علم التاريخ ، وليس الى الفن القصصى ، فهو لم يصور البلاد بأجمل مما رآها ، كما لم يصف الناس بأفضل ولا بأسوأ مما شاهدهم ..

وقد عنى " مونتبارد " فى وصف مشاهداته بمصر بتسجيل الواقع فى تفاصيله الدقيقه ، والافصاح عن مشاعره الذاتيه بوضوح ، وهذا ما يتمثل لنا من خلال وصفه لجوله بشوارع الاسكندريه ، بصحبة ثلاثه من رفاقه : جاك ، أونزيم ، د. كيراديك ، قبيل رحيلهم الى القاهره وصعيد مصر .. فيقول * :

" فى الصباح أخذ كل منا حماما منعشا ، ثم اجتمعنا لنتناول افطارنا بشهيه ملحوظه ، كان جاك قلقا من عزمنا على التجول بالمدينه ! وما أن انتهينا من الطعام .. حتى خرجنا جميعا الى ميدان القناصل (محمد على) .. فكان تمثاله البرونزى أول ما اجتذب انظارنا ، تبدل قلق جاك الى انبهار ودهشه لهذه الساحه ، بالرغم من الشمس المحرقه التى تنشر اشعتها على كل المكان .. فوضى غريبه فى أساليب العماره ومظاهر الحياه وتعدد الألوان الصارخه وصخب " هجين " من السكان القادمين من مختلف أرجاء العالم .

مضينا تحت ظلال أشجار السنط .. نتوقف عند كل خطوه نتأمل مشهدا .. مررنا بقصر " توسيزا " **

- G. Montbard : “ En Egypte , notes et croquis d’un Artiste “ Paris , pp . 81_ 88.

** كان توسيزا أو توسيجا ، قنصلا عاما لليونان بالاسكندريه ، كما كان واحدا من أشهر وأثرى التجار اليونانين ومنهم : زيزينيا ، فيرو ، زغيب وأنستاسى ، وكانت لهم علاقات مباشره بالقصر ، بالاضافه الى تمتعهم بالحمايه الانجليزيه .. فى الخامس من رجب عام ١٢٩٠ هجريه ، صدر "امر كريم" للماليه منطوقه :"انه بحضور قنصل جنرال اليونان ومقابلته رسميا ، صرف له سيف ومرشحه وحصان كالمعتاد ، وبلغ ثمنهم أربعه الف ومائه وثمانين قرش وعشرين فضه " (امين سامى: تقويم النيل ، م٣ ج٣ ، ص ١٠٨٩) .

حيث مقر محمكة الاستئناف المختلطه ، مجموعات من البدو ذوى البشره النحاسيه والاسنان البيضاء يرتدون عباءات خشنه من وبر الجمال ، كستنائيه اللون مزينه بخطوط طوليه بيضاء ، وعلى رؤوسهم " كوفيات " من الحرير الأصفر والابيض ، ثم مررنا بعدد من الفلاحات يمشين فى رشاقه شامخات رؤوسهن ، على اكتافهن اليسرى يحملن أوان فخاريه ونحاسيه كبيره ، يغطين أسفل وجوههن بخمار أسود ، فلا تبدو سوى عيونهم فقط ، يرتدين زيا واسعا أزرق اللون يتأرجح حول أجسادهن الرشيقه ، ما أغربهن فى هذا الزى القاتم ، الذى تتجلى فيه سمات الحداد على العظمه الغابره والمجد القديم لهذا الشعب !! وكانت أيديهن الخاليه تتحلى بأسوار نحاسيه ذات طرز قديمه ..

مجموعه من الفرسان (الارناؤط) بتنوراتهم القصيره ، بطباعهم الحاده وملامحهم الشرسه ، وستراتهم الحمراء تتدلى من احزمتها خناجر وغدارات .. خليط من السقائين المثقلين بقرب الماء الجلديه .. سودان ونوبيون بأجسادهم القويه .. ثم يهود مميزون بأنوفهم المقوسه وعيونهم غير المستقره وأغطية رؤوسهم السوداء ، تراجمه سوريون بسراويلهم الفضفاضه وستراتهم المطرزه ، عرب مغاربه تكسوهم أثواب بيضاء من قمة رؤوسهم حتى اطراف اقدامهم ..

تباطأت خطوات د. كيراديك ، وتوقف مع جاك ، أونزيم كان ممسكا بمظله تقيه من حرارة الشمس ، وقد وضع عليه عينيه نظاره سميكه .. يبدو انه لم يكن سعيدا بهذه الجوله .. حتى تساءل .. اى شىء جذاب ورائع ، يمكن ان نراه فى تلك الوجوه الفظيعه لهؤلاء الزنوج والبدو .. وهؤلاء الفلاحين القذرين والنساء حاملات الجرار بزيهن الغريب والمثير للسخريه .. وهؤلاء الفرسان بملامحهم الغبيه واليونان واليهود .. فليذهبوا جميعا الى الجحيم !!

ولان جاك قد خرج بدون مظله ، فقد تعرض لبوادر ضربة شمس ، جعلته غير متزن التفكير .. مضينا فى جولتنا حول الميدان الشهير ، غير عابئين باغراءات المكاريين ! الذين يقفون بجوار حميرهم ذات السرج المزركه بألوان تطفر منها البهجه ..!
مررنا بمكان مخصص لتأجير عربات الخيل (الحنطور) والحوذى يقف بجوار عربته ، مرتديا زيا نظيفا أبيض وازرق ، وطربوشا قرمزى اللون ..

توقفنا قليلا على ناصية شارع محمد توفيق باشا ، امام حانوت صراف يهودى ، حيث كان احد البدو ينهى معامله تجاريه ، واضعا يده على مائدة متهالكه ، بينما اليهودى جالس على مقعد خشبى قاعدته من القش ، متقوبه ، وفاقد لاحد قوائمه ، وكان يستبدل بعض العملات النحاسيه بأخرى من العملات الورقيه ، يضعها فى ثنايا حزامه الجلدى .

ثم مررنا بعدد من حوانيت بيع الساعات والحلى ، ومعظم اصحابها من الايطالين ، وشاهدنا فى بعض الحوانيت ، برانس وقلنسوات موشاه بالذهب والفضه ، وكوفيات من الحرير الفاخر ، وحلى خفيفه ، وأقراط وقلائد وأساور بتصميمات عريقه ، وخناجر مرصعه بالجواهر ..! والتجار والبائعون جالسون على أعقابهم ، أو مسترخين على بسط يدخنون النرجيله .. غارقين فى حاله من النشوه ..!
ثم مضينا فى تيه من الحارات والازقه الضيقه الملتويه ، حتى وصلنا الى قلب " المدينه التركيه " كاد أونزيم يفقد اتزانه فى كل خطوه ، مبديا اشمئزازه من هذه الرحله الحمقاء ! - على حد تعبيره -ثم سرنا فى شوارع هادئه .. المنازل ذات الطراز العربى والمشربيات الرائعه التى تميزها ، بعض الناس يتحاورون امام الابواب ، وعجائز اليهود يفرجن الابواب قليلا ، كى يشاهدوننا نحن الغرباء !

ثم انطلقنا بمحاذاة أسوار عاليه بيضاء تحيط بالميناء الكبير ، الى قلعة قايتباى ، وعندما يكون البحر ساكنا ، يمكننا ان نرى الفنار ، برج ذو عدة طوابق مشيد بالمرمر الابيض ، صوره شنيعه بالنسبه لمثيله معجزه عصر البطالمه !!
وتابعنا السير حتى وصلنا الى قصر " رأس التين " المقر الصيفى للخديو ، وصعدنا درجات السلم المصنوعه من المرمر الفاخر ، ثم دلفنا الى البهو الكبير المستدير ، وبهرتنا الثريات التى تفوق الوصف ، وشاهدنا الفناء أو الممر المظلم الذى يفصل القصر عن اجنحة الحريم .

بعد استراحه قصيره مررنا بالترسانه البحريه ، وعبرنا المرفأ حتى الى الدائره الجمركيه ثم عدنا ادراجنا .. وبالرغم من الارهاق الذى اصابنا ، الا ان شعورا بالسرور والبهجه غمرنى حتى وصلنا الى الفندق .
وفى اليوم التالى كنت شغوفا الى حد الهوس لاكمال الجوله ، وبعد الغداء ، صحبنى جاك والطبيب كيراديك ، بينما قرر أونزيم الخلود الى الراحه والنوم ، على ان يلقانا فى السادسه مساء بمقهى " روسينى " ..

فى كل الطرقات والشوارع تطالعنا وجوه الباعه اليونانين ، حول رقابهم ايشاربات لطيفه وعلى رءوسهم طرابيش حمراء داكنه ، يعرضون على موائد - سهلة الطى - منتجات متنوعه مثل المربات والبلح والكواونيا وأنواع من الحلوى بيضاء وصفراء وحمراء ..

وعلى بعض الارصفه يتمدد بعض العرب - بلا مبالاه - تحت أشعة الشمس الحارقه ، يلعنون هذه الطرق المعبده ، ويتذكرون الطرق القديمه الضيقه ، التى كانت تحميهم من الشمس وحيث كان فى استطاعتهم النوم فى هناء واسترخاء لذيذ ...!

ورأينا بعض الحلاقين يؤدون عملهم فى الهواء الطلق على الارصفه ، وعدد من حراس المنازل (بوابين) مستغرقين فى النوم على ارائك من جريد النخيل (عنجريب) ، ممسكين بعصيهم والابواب مفتحه على مصراعيها ..!

ونمر برجل ضخم الجثه يمتطى حمارا صغيرا ينوء بحمله الهائل ، والمكارى يضرب مؤخرة الحيوان البائس يحثه على الاسراع ..!

وعدد من البربر عائدين من الاسواق حاملين سلال الخضروات والفاكهه ، يتبعون سيدات مكتنزات من الطبقه الثريه .. ومربيات للاطفال ، يمسكن بمجموعه من الكتب ، يضعن بالطو صغير على الذراع ، وامامهن بعض الاولاد والبنات العائدين من المدرسه ، وآثار التعب باديه على الجميع !

توقفنا قليلا امام كنيسة " البشاره " اليونانيه ، بناء ضخم على الطراز البيزنطى ، محاطه بحدائق غناء ، ننتظر خروج موكب " القداس " .. موكب مهيب وممتد .. راهبات فى هيئه كلاسيكيه ، تميزهم رقة السمات ونقاء السرائر ورشاقة الخطوات .. قال لى د. كيراديك ان هذا المشهد يذكرنى بجميلات الاسكندريه الفاتنات فى عصر البطالمه ، فى موكب احتفالهن بيوم " ادونيس " ..!

ومررنا بمسجد ابراهيم ، وبجواره فندق " اوربا " الضخم ، وتستند واجهته الرئيسيه على عدد من البوائك ، بداخلها مجموعه من الحوانيت والبازرات ..

وعندما وصلنا شارع " مسجد العطارين " اخبرنى جاك انه ليس شغوفا بتلك الابنيه والشوارع الحديثه ، فى ذلك الحى الذى استوحى الطراز الأوربى فى عمارته ، فأصبح مسخا مشوها ! افتقد الرفاهيه الاوربيه ، ورشاقة وعراقة الطراز العربى .

وقال د. كيراديك : الاسكندريه ان لم تكن العاصمه الرسميه للدوله ، فهى العاصمه الحقيقيه بلا جدال ، فهى مركز لفروع وعمليات البنوك العالميه وكبرى بيوت التجاره والمال ....

لكن ويااللاسف فهى ايضا مركز جذب للمغامرين والعابثين والافاقين واللصوص .. وشهرة المدينه هى الشىء الوحيد ، الذى لم يستطيعوا سرقته ، يعيش هؤلاء منعمين بحمايه قنصلياتهم ، وتغدق على الجميع اموال التعويضات الضخمه ، عن خسائر واضرار وهميه ! الى جانب ما يقومون به من عمليات احتيال وتهريب وابتزاز فاقت الحد .. حسبهم ان يكونوا بمصر ، كى يربحوا الآلاف دون ان يدفعوا مليما واحدا ضريبه ، فالفلاحون وحدهم هم الغارمون الضرائب .. اما القناصل فهم طغاه صغار ، يجاملون من يشاؤن من اصحاب النفوذ ، وكل اوربى من هؤلاء حين يطأ ارض مصر لايعترف بالسلطه او القضاء المصرى ، وقوانين البلاد يطأها بأقدامه بالرغم من المعاهدات الدبلوماسيه ، وهيبة ونفوذ هؤلاء القناصل لا يمكن ان تمس .. فهم آلهه بيدهم حركة الشمس !!

فورستر ... ومدينته المختلفة !

" أنتم المصريون ، لا تقدرون قيمة الإسكندرية ، إنكم تنظرون إليها باعتبارها مجرد مصيف ذو شواطئ جميلة ... هذه هي اسكندريتكم ! .. ولكن مدينتي مختلفة ، إنها الاسكندر الأكبر وفنار فاروس .. إنها المكتبة العظيمة التي كانت مركزا للعلوم والفنون ، عندما كانت الإسكندرية تصدر المعرفة إلى أوروبا ... والعالم اجمع " ! .

هكذا قال الروائي البريطاني الشهير " ادجار مورجان فورستر " ١٨٧٩ - ١٩٧٠ صاحب كتاب : " الإسكندرية - تاريخ ودليل " ... والمعروف بروايته الشهيرة " A Passage to india " التي ترجمت إلى لغات عديدة وشاهدناها فيلما في مصر تحت عنوان " ممر إلى الهند " ..

كتب فورستر " الإسكندرية - تاريخ ودليل " عندما أقام بالإسكندرية بالهيئة الدولية للصليب الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى ، بعد أن رفض المشاركة في هذه الحرب وبالتحديد في الفترة ما بين نوفمبر عام ١٩١٥ حتى يناير عام ١٩١٩ ، وقد قدم في هذا الكتاب تاريخا رائعا للإسكندرية - عبر ٢٥٠٠ سنة - منذ أن أنشأها الاسكندر الأكبر حتى الحرب العالمية الأولى ، في محاولة لتقديم معالمها الحالية من خلال ماضيها .

تم طبع هذا الكتاب في مصر مرتين في مدينة الإسكندرية في ١٩٢٢ م ، ١٩٣٨ م ثم صدر في الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٦١ م مع مقدمة جديدة للمؤلف ، ولم يصدر هذا الكتاب في بريطانيا أو في أي مكان آخر ، إلى أن كانت هذه الطبعة التي تحتوى لأول مرة على ترجمة

لقصيدة كفافيس " الإله يتخلى عن أنطونيو " تلك القصيدة التي استعرض فيها كفافيس أبهة الزمان ، وجلال المكان والتي استفاد منها لورنس داريل في كتابته لرباعية الإسكندرية.

يكتب جون فويلز : " إن المدن المنفتحة هي أمهات للمجتمعات المستنيرة ، ووجود مثل هذه المدن هام بشكل خاص للأدب ، ولهذا فإنني أعتقد أننا نتعشق أوهامنا عنها ونغفر لها الكثير من خطاياها " .

وعندما نفعل ذلك مع الإسكندرية ، فإننا لانلام ، لأنها النموذج الأصلي للكوزموبوليس وانصهار المتناقضات : قصيدة انطونيو وكليوباترا لكفافيس ، أ.م. فورستر ، لورنس داريل وغيرهم .

هناك قائمة فى غاية التميز من المحتفين الأجانب ، استطعنا من خلالهم أن نحظى بصورة خالدة للمكان .. هذه الصورة واهنة وماكرة وعنيدة بشكل دائم ، وهى وإن كان الإخفاق يحيط بها ، إلا أن إخفاقاً بمثل هذا الغنى ، يعتبر نوعاً من الانتصار " .

وإسكندرية فورستر هى إعادة بناء لمدينة هائلة من الأطياف ، مدينة تكمن فى أعماق الحلم المشترك للأدب !

والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات تاريخية محورها هذه المدينة الكوزمو بوليتانية ، ملتقى الأجناس المختلفة ومسرح العقائد المتصارعة والآراء المتنافرة وأساليب الحياة التي تمتد من زهد الزاهدين الى مجون الغانيات والتي شهدت – عبر التاريخ – فلسفة افلوطين ، وهى مزاج من فلسفة الإغريق الوثنية وكتابات المتصوفة ، وأباء الكنيسة ، وأمجاد مكتبة الإسكندرية . ملحمة كليوباترا وانطونيوس .

كان إنجذاب فورستر الى حضارة حوض البحر المتوسط انجذابا الى قيم الجمال والانطلاق .

وكتاب فورستر من أجمل ما كتب عن مدينتنا ... التي تجمع بين العمق التاريخي ، وحاضر ملئ بالمتناقضات ، ومستقبل يحده - كالماضي - البحر من جانب ، والصحراء من جانب آخر !

ومن الطريف أن فورستر يقدم كتابه بما قاله " ابن دقماق " الرحالة العربى الشهير :

" إذا طاف الإنسان في الإسكندرية في الصباح ، فان الله سيصنع له تاجاً من ذهب محلى باللآلى ويعطره بالمسك والكافور ، يلمع من الشرق إلى الغرب " !!

وفى رحلة البحث عن " الجنة المفقودة " " نطوف مع فورستر في " مدينته المختلفة " .. في ميادينها وشوارعها وآثارها ... ونقف عند بعض من معالمها في عصرها الذهبي .. المدينة " الأسطورة " التي زوجت " روكسانا " للاسكندر المقدونى ، وزوجت الشرق للغرب ، والعقل للوحى ، والارض للسماء ، فكان لها من هذه الزيجات قصور وحدائق ، وأديان ومعابد ، ومتاحف ومكتبات ، وفلاسفة وشعراء ... !

يمضى بنا " فورستر " فى رحله بقلب المدينه - فى ذلك الزمن الجميل - وبعض شواهده ما زالت ماثلة أمام أعيننا... فيقول : *

كان ميدان محمد على سابقا يسمى " ميدان القناصل " ويعرف باسم ميدان المنشيه لدى سائقى مركبات الأجرة الواقفين بجوار نقطة الشرطه ، وصممه محمد على ليكون مركزاً لمدينته الجديده (حوالى عام ١٨٣٠) فى العصور البطلمية كانت هذه الارض يغطيها البحر ، ويصل عرض الميدان الى أكثر من مائة ياردة ، وطوله حوالى خمسمائة يارده ، وهو مشجر بشكل جيد ، ولكن تحيط به مبان عديمة القيمة ، وقد عانت من جراء القصف فى عام (١٨٨٢ م) عندما إحترق كل شيء فى ذلك الوقت عدا تمثال محمد على وكنيسة القديس مرقص .

• وفى وسط الميدان : التمثال الذى يصور محمد على على متن جواده ، وهو نموذج مثير للاعجاب من نماذج النحت الفرنسى لجاكمار ، وعرض فى الصالون فى عام ١٨٧٢ م ، وكان المسلمون الأصوليون معادين لإقامته ، وحتى الان لايوجد عليه اى إهداء ! ..

وقد حاز وجوده ترحيباً كبيراً ، حيث أنه واحد من الأشياء القليلة الراقية فى المدينه ! ..

على اليمين وأنت مواجه التمثال : المحاكم المختلطة ، حيث كان ينظر فى القضايا المدنية والتجاريه بين المصريين والأوروبيين بموجب الاتفاقية المبرمة عام ١٨٧٥ م .

على اليسار : الحدائق الفرنسيه ، وهى شريط رائع يمتد على هيئة زوايا حاده من الميدان الى رصيف الميناء الجديد .

على اليسار أيضاً : كنيسة القديس مرقص الإنجليكانيه التى بنيت على أرض منحها محمد على للإنجليز ، بالإضافه الى مبانى القديس مرقص المجاوره ، وبإلقاء نظرة من خلال سياج فناء الكنيسه ترى التمثال النصفى العجيب للجنرال إيرل (الذى قتل عام ١٨٨٥ م فى كربكان بالسودان) .

---

* ا . م فورستر : " الاسكندريه - تاريخ ودليل " ترجمة : حسن بيومى - المجلس الاعلى للثقافه ، المشروع القومى للترجمه - ٢٠٠٠ .

نهاية الميدان : البورصه ، ذات الاعمده والساعه الخارجيه . وفى الداخل توجد بورصة القطن ، الأولى فى التجاره المصريه ، الصراخ والصياح الذى قد يسمع فى الصباح لا يصدر عن وحوش الغابه ، ولكنه يصدر عن تجار الاسكندريه الأغنياء وهم يشترون ويبيعون ، وفى الطرف الاخر لنفس القاعه توجد بورصة الأسهم . والمشهد بأكمله يستحق المشاهده حقا ، ولذا كان لابد من تقديمه !

• شارع شريف باشا . وهو شارع صغير وأنيق يعج بسرايات الأعلام ، ويبدأ من الميدان على يسار البورصه ، وهنا توجد أفضل المحال التجاريه . وبالقرب من نهايته . على اليسار ، فى مدخل شارع طوسون باشا ، يوجد بنك روما ، وهو أرقى مبانى المدينه ، والذى أسسه المهندس المعمارى (جورا) . وهو نشخه معدله من قصر فارنيز الذى بناه أنطونيو داسان جالو ومايكل انجلو فى القرن السادس عشر فى روما .

والمواد المستخدمه فى بنائه هى الحجر الجيرى المصقول والقرميد الصغير ذو اللون الاحمر الباهت الجميل . والمبنى يتكون من طابقين على خلاف قصر فارنيز المكون من ثلاثة طوابق ، ولكن يوجد " دور مسحور " أسفل الإفريز الضخم . وعلى جانبى البوابه ، توجد حاملات متقنة الصنع للمشاعل مصنوعه من الحديد المطاوع . وفوق البوابه ، يوجد الذئب الذى يمثل شعار مدينة روما . فى مدينة كوزموبوليتانيه مثل الاسكندريه ، تلك التى لم تبدع معمارا خاصا بها ، ليس هناك تناقض فى وجود هذا النموذج من عصر النهضه الايطاليه . وبعد ذلك بقليل فى شارع طوسون باشا ، يوجد بنك مصر العقارى برواقه نصف الدائرى الجميل ذى الأعمده . ثم يتصل شارع شريف باشا بعد ذلك بشارع رشيد .

شارع رشيد : وهذا الشارع ، على الرغم من شكله الحديث ، الا انه اقدم شارع فى المدينه ، فهو يسير فى نفس مسار الطريق الكانوبى ، الذى كان الشريان الرئيسى لمدينة الاسكندر ، وفى عهد البطالمه ، كان مصفوفا بأعمده رخاميه من أوله حتى نهايته . واسمه الكامل هو شارع ميناء رشيد . وكان يبدأ من بوابة رشيد فى الأسوار العربيه القديمه ، ثم يتجه شرقا ، وقد غيرت البلديه اسمه حديثا الى اسم بلا معنى " فؤاد الأول " ، فحطموا واحدا من الروابط القليله التى كانت تصل مدينتهم بالماضى !

وفى مدخله ، على اليمين : يوجد قسم شرطة العطارين ، وهو يمثل مركز الحراسه البريطانيه الرئيسى ، ثم شارع محطة مصر الذى يؤدى الى محطة السكك الحديديه الرئيسيه وهنا كان يوجد معبد صغير لسيرابيس مكان نادى محمد على ، اكبر النوادى فى المدينه حاليا ، كما يوجد ايضا مكتب كوك .

بعد مائة يارده ، يتقاطع الشارع مع شارع النبى دانيال ومع خط الترام . وكان يوجد فى هذا المكان فى العصور القديمه التقاطع الرئيسى لطرق المدينه القديمه - واحد من اعظم الاماكن فى العالم . والاسقف اخيلوس تاتيوس الذى كتب فى عام ٤٠٠ م رواية تافهه وبذيئه تدعى " كليتوفون ولوسيب " يصف هذا المكان قائلا :

" أول شيء لاحظته بدخولي الاسكندريه من بوابة الشمس (بوابة رشيد) هو جمال المدينه ، وقد ربط صف من الاعمده بين طرفيها . وبالتقدم بين هذه الاعمده ، وصلت بمرور الوقت الى الميدان الذي يحمل اسم الإسكندر ، وهناك استطعت ان ارى النصف الاخر من المدينه ، والذى كان على نفس الدرجه من الجمال . وبمجرد رؤيتي للاعمده الممتده أمامي ، ظهرت اعمده اخرى مكونه زوايا حاده مع الاعمده السابقه " .

• وعلى هذا ، فالمكان الذى يسير فيه خط الترام كان مكسوا أيضا بالرخام فى وقت ما . وبالاتجاه يمينا لعدة ياردات فى شارع النبى دانيال نصل الى : مسجد النبى دانيال ، والذى يقع بالقرب من موقع مقبرة الاسكندر (السوما) ، حيث كان يرقد الاسكندر الاكبر وبعض البطالمه مدفونين على الطريقه المقدونيه ، ولم يتم الكشف أبدا عن هذه الأقبيه ، وهناك قصه شائعه تقول ان جسد الاسكندر ما زال يرقد فى واحده منها ، وانه لم يمس بعد!

وفى المبنى الذى يقع على يمين الممر المؤدى الى المسجد ، توجد مقابر العائله الخديويه ، وهى تستحق الرؤيه بسبب غرابتها ، فلا شيء يماثلها فى الاسكندريه : الضريح على هيئة صليب ، وهو ملون بألوان الرخام . ومغطى بالسجاد العجمى . وعلى اطراف السجاده توجد المقابر ، مختلف الاحجام ، ولكن بنفس التصميم ، وكلها ملونه باللونين الابيض والذهبى . والطربوش الاحمر يرمز الى الرجل ، والتاج ذو الشعر المصفف بالطريقه التقليديه يرمز الى المرأه . واهم الشخصيات المدفونه هنا : سعيد باشا - فى المقبره الثالثه على اليمين ، وكان ابنا لمحمد على ، وحكم مصر من عام (١٨٥٤ - ١٨٦٣ م) ، أما محمد على نفسه فمدفون بالقاهره . وتوجد بين الضريح والشارع فسقيه بها افاريز وقبة على الطراز التركى .

وفى مواجهة المسجد ، توجد بعض الاعمده الاثريه المستخدمه كدعامات للبوابه ، ربما كانت واجهه الجامعه ممتده الى هذه النقطه .

خلف المسجد : قلعة كوم الدكه . مكان " البانوم " القديم أو حديقة بان ، وقد كانت قمة التل فى ذلك الوقت منقوشه على هيئة أقماع الأناناس ، وكان يتم الصعود اليها بواسطة طريق حلزونى . وفى ايام العرب ، كانت أسوار المدينه المتهدمه تمر حتى جنوب كوم الدكه ، وما زال باقيا حتى الان امتداد لها ، فى منتصف الطريق بين قاعدة القلعه ومحطة السكك الحديديه ، وهذه الأسوار تحاذى الطريق ، ولكن لا يمكن رؤيتها منه ، لأنها مغموره ، وتطوق خندقا مائيا ، وخلف القلعه تستمر الارض المرتفعه ، والحى العربى الصغير المدعو كوم الدكه مبنى على قمتها ، والحارات المنعطفه على الرغم من ضآلتها ، الا انها تتناقض بجمال مع بهرجة المدينه الاوروبيه . ونعود ثانية الى شارع رشيد .

• فبعد مسافه قليله فى شارع رشيد هناك انعطافه الى اليسار تؤدى الى كنيسة ودير القديس سابا . مقر البطريرك الأرثوذكسى اليونانى .

وفى نهاية الشارع على اليسار ، هناك المستشفى اليونانى ، وهو مبنى جميل يقع وسط حديقه . ويمر شارع رشيد الان بالمحاكم الاهليه على اليسار ، ثم يصل الى مبانى البلديه ،وخلف هذه الاخيره ، بعد عدة ياردات فى شارع المتحف توجد مكتبة البلديه . اصعد الدرجات المقابله لبوابة الدخول ، وادفع الباب . ان المكتبه جيده باعتبارها وقفا بائسا . ان المدينه التى امتلكت اعظم مكتبه فى العالم لا تستطيع الان ان تدفع اكثر من ثلاثمائة جنيه سنويا لشراء وتجليد كتبها !!
وراء المكتبه يوجد مبنى اجمل بكثير - وهو المتحف اليونانى الرومانى .

و من شارع فرنسا مضى " فورستر " الى شارع رأس التين ، ثم نتوء رأس التين ، وعاد الى الميدان عن طريق خليج الانفوشى والميدان الشرقى ، حيث يسير الترام الدائرى (ذو المثلث الاخضر) بموازاة أرصفة الميناء ... وكانت ابرز معالم هذه المنطقه : مسجد طربانه ، ومسجد الشوربجى ، ومسجد أبو العباس ، ومقابر الانفوشى ، وقصر رأس التين ، و " ميناء ما قبل التاريخ " وقلعة قايتباى ، وأرصفة الموانى الحديثه ...
قال فورستر :
نبدأ من الركن الشمالى الغربى من ميدان المنشيه ونجتاز شارع فرنسا " بالمدينه التركيه " . والتى تم بناؤها فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، على لسان الارض المتصل بالسياج البطلمى المتهدم . وتوجد بها البازارات والمساجد على نطاق ضيق ؛ لأن المدينه فى ذلك الوقت كانت فى اضعف حالاتها . ولكن المنطقه رائعه ويغمرها سحر لطيف خاصة فى المساء ، وافضل طريقه لمشاهدتها هى ان تتجول فيها بلا هدف .

فى شارع فرنسا على اليمين شارع بيرونا ، ويوجد على الجدار المقام فى مدخله بقايا من النحت المصرى يمثل الإلهه " سخت " التى لها رأس أسد ، ويصب الشارع فى ميدان صغير جميل يحوى المحكمه الاهليه القديمه ، ومبنى أخر (رقم ٤) له بوابه منقوشه وساحه هادئه بها اعمده اثريه .
فى الشوارع التى على يسار شارع فرنسا توجد بعض المساجد مثل : مسجد ابراهيم باشا . فى الركن الشمالى الغربى من الميدان ، ذو مئذنه ملونه باللون الاحمر والاصفر .
• مسجد الشوربجى : بشارع الميدان ، وهو يستحق الزياره بالفعل ، ويرجع تاريخ بنائه الى عام ١٧٥٧ م ، وتخطيطه مشابه لمسجد الطربانه ، ومنظره من الخارج مشوه بسبب الترميم ، ولكن يوجد اعلى الباب المؤدى الى الردهه الداخله الى صحن المسجد قوس مزين بحلى على شكل اوراق شجر ثلاثية الوريقات ، ومبنى بالقرميد الجميل ، ويوجد فى وسط القوس رسم مصغر لمحراب . وعلى الرغم من بساطة المعمار فى الداخل ، الا ان القرميد المزخرف ما زال يحتفظ بروعته ؛ لان معظمه لا يزال سليما . والقرميد يشكل لوحات على الجدران ، والتصميمات الموجوده تزدان بزخارف هندسيه ونباتيه رائعه متعددة الالوان ..

مسجد ابو على : (سر الى قرب نهاية شارع باب الاقدر الطويل ، ثم يمينا فى شارع مسجد على بك جنينه ، ثم يمينا مره اخرى) . لا يوجد شىء يمكن رؤيته فى هذاالمسجد الصغير المتواضع ، ولكن يقال انه اقدم مسجد فى المدينه ، وبداخله ترى الرقم ٦٧٧ والذى ان كان يعنى تاريخا هجريا ، فانه يوافق ١٢٧٨ م ، ويقول ابناء الاسكندريه ان هذا المسجد كان على حافة البحر فى وقت مضى ، حتى ان المؤمنين كانوا يتوضأون بالماء المالح ، قد تكون هذه الفكره المتوارثه صحيحه لأن خط الشاطىء القديم كان يمر من هنا . والمبنى فى هيئته الحاليه لا يمكن ان يكون قد بنى قبل القرن الثامن عشر ، وبداخله يوجد على قمة المنبر نموذج لقارب .

• وبالاستمرار فى السير فى شارع فرنسا ، ترى الكتله البيضاء المكونه لمسجد طربانه . وهذا المسجد يستحق الزياره ، على الرغم من الجص والدهان الحديثين . وتاريخ البناء يرجع الى ١٦٨٤ م ، والمدخل الصغير المطل على الشارع مصمم على شكل مثلث ، والقرميد ملون باللون الاسود والاحمر ، وتوجد بينهما بعض العروق الخشبيه ، كما توجد كتابه كوفيه لأعلى : " لا إله إلا الله " و " محمد رسول الله " ، وتوجد نماذج افضل لهذا الطراز فى رشيد . والباقى من الدور الارضى تشغله المحال . وفى قمة السلم يتجلى مشهد ممتع ، حيث يوجد على اليسار عمودان أثريان عظيمان من الجرانيت لهما تاجان مزخرفان بأوراق نبات الأقنثوس (على الطراز الكورنثى) ، وبينهما توجد ساحه فى الهواء الطلق بها تعريشات حديديه ونوافذ ذات قضبان ، وعلى اليمين يوجد رواق المسجد ، وقد كان جميلا فى وقت ما ، وما زال ثلثا حائط المدخل مغطيين بالقرميد المبنى بنفس الاسلوب الموجود بمسجد الشوربجى ، وبأعلى الباب توجد كتابه تنص على ان الحاج ابراهيم طربانه هو الذى بناه عام ١٠٦٧ هجريه .

الشارع الرئيسى الآن يدعى " شارع رأس التين " وقد كان الساحل الجنوبى لجزيرة فاروس يبدأ من هنا فى وقت ما ، وبالتالى فإنه توجد فى هذا المكان أثار قديمه ؛ فعلى اليمين شارع سيدى ابو العباس ، وهو يؤدى الى الميدان الذى يحمل نفس الاسم ، وهو اهم الميادين فى المدينه التركيه ، وهنا عندما يحل المساء ، ينتاب المرء وهم الرومانسيه الشرقيه . وهنا فى (١٩٢٢ م) كانت نقطة التجمع لقيام المظاهرات الوطنيه . والطريق - قبل ان يصب فى الميدان مباشرة - يمر بموقع معبد " إيزيس فاريا " الذى كان يطل على المناره .

• ويطل على الميدان المسجد الكبير الابيض لأبو العباس المرسى ، والذى بناه الجزائريون عام ١٧٦٧ م ، وبعضهم ما زال يعيش بالقرب من هذا المكان ، ومقبرة هذا الولى المتوفى عام ١٢٨٨ م توجد تحت قبه منخفضه ، والجانب الآخر من المسجد له مدخل من القرميد غير المرمم على شكل مثلث ، وبه نتوات وقرميد وكتابه كوفيه (ويمكن الوصول لهذا الجانب عن طريق ممر به منعطفات على اليمين) .

فى نهاية الميدان يوجد مسجد صغير لسيدى داود ، وبه مقبرة هذا الوالى ، كما توجد فى ساحة المسجد نخلتان طويلتان . وفى الناحيه الجنوبيه من الميدان توجد مقبره نموذجيه تسمى (سيدى أبو الفتح) ، وهى محاطه بسور أخضر (من البغدادلى) ، وهذا التشابك من الطبقات يحافظ على جو القرن الثامن عشر ، والى الشرق - بين مسجد أبو العباس والبحر - يوجد مسجد حديث ضخم ، يسمى " مسجد البوصيرى " حيث كان السلطان عادة ما يقيم فيه صلاة الجمعه . وبالمشى قليلا فى الشارع تجد بقايا حجر مغطى بالكتابه الهيروغليفيه . ويستخدم الأن كمقعد !

ثم يمضى بنا " فورستر " فى جولته .. الى " قلعة قايتباى " ويسجل بأسلوب غاية فى الدقه والبراعه وصفا للقلعه وأروقتها وأبراجها ومسجدها .. ويضيف :

" ومن قمة المبنى يمكن رؤية مشهد للإسكندريه ، وهو ليس جميلا ولكنه ذو دلاله . من اليمين الى اليسار ترى " قلعة عدا " ومنارة رأس التين (فى الخلفيه) ، ومئذنتى مسجدى أبو العباس والبوصيرى (من الجهه الأماميه) ، وقلعة كوم الناضور ومسجد طربانه (من الجهه الاماميه) ، وعمود بومبى (فى الخلفيه) ، وقلعة كوم الدكه والخط الطويل للضواحى الشرقيه ، ووراءهم توجد المئذنه البعيده لمسجد سيدى بشر ، وينتهى الساحل بنتوء المنتزه الملىء بالاشجار ، وأسفل ذلك تماما يوجد حائل الامواج الحديث الممتد فى اتجاه النتوء المقابل المعروف بالسلسله ، ويسارا توجد الصخره الماسيه التى تتلاطم فوقها الامواج . والآن دع الزائر (ان استطاع بذل الجهد) يرفع نفسه أربعمائة قدم لأعلى فى الهواء .. دعه يستبدل منارة رأس التين بمعبد لبوسيدون .. دعه يحذف المساجد والأرض المبنيه عليها ، ويتخيل مكانها رقعه فسيحه من الماء يجتازها جسر .. دعه يضف الى عمود بومبى معبد سيرابيس وإيزيس وجدران المكتبه الضخمه المدعمه .. دعه يجعل من كوم الدكه حديقه بهيجه رائعه فى أسفلها مقبرة الاسكندر .. دعه يحول الضواحى الشرقيه الى حدائق .. وأخيرا دعه يفترض أن السلسله ليست هى ما يمتد اتجاهه ، انما هى نهاية القصر البطلمى الذى تلجأ سفن الأسطول الملكى الصغير الى يمينه ، وتحيط به من جهة البر مدرجات المسرح وحدائق الجامعه .. وهنا يستطيع أن يكون مفهوما عما كانت تبدو عليه الإسكندريه القديمه عند النظر اليها من قمة الفنار ، وما كانت تبدو عليه عندما دخلها العرب فى خريف عام ٦٤١ م .

وفى أسفل الحصون الموجوده شمال القلعه ، وتقريبا فى مستوى الشاطىء ، يوجد رواق طويل به بعض هياكل للمبانى التى تم ضربها بواسطة الإنجليز عام ١٨٨٢ م .
ويسير الترام الآن بمحاذاة دوران الميناء الشرقى ، وهو حوض جميل الشكل ، وقد كان الميناء الرئيسى قديما ، ولكن عندما خطط محمد على المدينه الحديثه ، عمل على تطوير الميناء الغربى بدلا منه ، ويوجد حائل للأمواج من طابقين ليكسر الأمواج التى ترتطم بالطريق فى الجو العاصف ، وهناك متنزه رائع ، وأرصفه حديثه ، وهى التى تمتد على طول الطريق من قايتباى حتى السلسله . والسير بطول هذه الأرصفه قد يكون ممتعا ، على الرغم من أنه قد تفسده بعض الروائح الكريهه .

ونمر الآن ، على اليمين ، بمسجد البوصيرى ، وأخيرا نصل الى الحدائق الفرنسيه المتصله بالميدان الذى بدأنا منه .
وعلى يسار الحدائق الفرنسيه توجد القنصليه الفرنسيه ، ومكتب البريد العام ، والذى يتم الدخول اليه من الشارع الخلفى ، وكنيسة القديس أندروز ، وهى كنيسه اسكوتلانديه !

فورستر وكفافى :

خلال الحرب العالميه الاولى ، تقابل فورستر مع الشاعر " كفافى " .. كتب فورستر : " لم أحدد له ان كنت احب عمله أة حتى أفهمه ، اتذكر احساسنا بالبهجه فى احدى الليالى المعتمه بسبب انقطاع الكهرباء ، كنا فى شقته بشارع ليبسيوس ، عندما المحت له اننى ربما اكون مراقبا ، فقفز فرحا مشعلا شمعه ، تلاها بأخرى ، اقتسمنا سيجاره بينى وبينه ثم قدم لى بعض المستكه وقليلا من الخبز والجبن ، ودار حديثنا متأرجحا بين احوال عالم البحر المتوسط وما يجرى بداخله " .

لقد فعل فورستر الكثير من اجل اعلاء شأن ابداعات كافافى ، وبعد عدة سنوات كتب فورستر : " لقد فعلت قليلا من اجل ذيوع شهرته ، وكان ذلك افضل شىء قمت به " ! .. وكتب ايضا : " كنت كثيرا ما افكر فى حظى السعيد والفرصه التى حصلت عليها ومنحتنى اياها الحرب رغم قطاعتها وهى مقابله اعظم شعراء عصرنا ".. كانت لقاءات فورستر وكفافى فى " كلوب محمد على " الذى كان يضم أمراء الاسره المالكه كبار رجال الاعمال والمال وأصبح فورستر عضوا فيه .. كذلك ارتبط فورستربصداقه مع "محمد العدل" كمسارى الترام ، استمرت نحو خمس سنوات ، وقد نشأت صداقتهما خلال لقاءاتهما اليوميه فى الترام اثناء ذهابه وايابه من عمله، كما كانا يتقابلان فى حديقة الشلالات بالشاطبى ، وكان فورستر يحتفظ بتذاكر الترام كتذ كار ، كانا يجلسان بينما يتراءى عمود بومبى من بعيد .. يتسامران ويطعمان بط البحيره !

مع لورانس داريل في "عاصمة الذكريات"

الإسكندرية ... مدنية الجمال والنبل والعظمة ، التي عاشت منارة للحضارة ... وتبوأت أسمى مكانة للفن والثقافة ... لم يتأثر بها المصريون فقط ، بل أحبها وخلدها كتاب و أدباء وشعراء أجانب ... لعل أشهرهم : لورانس داريل وفورستر وكفافي وسيركاس

و " لورانس داريل " ... هو صاحب ملحمة القرن العشرين ، واحدة من أهم روايات عصرنا : " رباعية الإسكندرية ".

وصفه هنري ميللر بأنه " سيد الأدب البريطاني " ... ويضعه النقاد في مرتبة جيمس جويس ومارسيل بروست ، باعتبارهم – الثلاثة – آباء التجديد الأدبي الذي كان من سمات القرن العشرين ، ولد داريل عام ١٩١٢ بالهند ، وتلقى دراسته في كانتربرى بإنجلترا ، وعاش مع أسرته زمناً بجزيرة كورفو اليونانية ، إلى أن شغل منصب مدير المجلس البريطاني بأثينا والأرجنتين ، وداريل شاعر إلى جانب كونه روائياً ، بل ربما كان شاعراً حتى في قصصه ، وهو رجل واسع الأسفار ، خصب الخيال ، ثائر – كأستاذه الأمريكي هنري ميلر - على المواضعات الأخلاقية التقليدية ، وله في أدب الرحلات : " تأملات حول فينوس بحرية " (١٩٥٢) عن جزيرة رودس ، و " ليمونات مرة " (١٩٥٧) عن جزيرة قبرص ، و " زنزانة بروسبرو " عن جزيرة كورفو ، ولكنه معروف في المحل الأول - برباعية الإسكندرية التي تتكون من : " جوستين " (١٩٥٧) و " بالتازار " (١٩٥٨) و " ماونت اوليف " (١٩٥٨) و " كليا " (١٩٦٠) وهى معالجة - حسية كثيفة - لخيوط الزمن ، ومعنى الخبرة ، والحب العصري ، وتعدد أوجه الحقيقة بتعدد الناظرين إليها ، كما

كتب فيما بعد " خماسية افينيون " التي تشير إلى الإسكندرية في مواضع متفرقة .

وفى رواية " جوستين " - وهى أهم أجزاء الرباعية - نرى الأحداث من خلال عيني روائي إنجليزي ، عاش زمناً بالإسكندرية ، يدعى دارلى ، ويخيم على الرواية شبح الشاعر اليوناني العجوز كافافى ، بل يورد الكاتب أبياتا من شعره هنا وهناك . وعند دريل أن " الإنسان ليس إلا إمتداداً لروح المكان " ... وماذا يكون المكان في الإسكندرية إن لم يكن هذين القطبين المتقابلين : البحر والصحراء ؟

كانت " الإسكندرية " هي مكان أحداث رباعية داريل ، وبالرغم من أنه كان اكثر اهتماماً بشخصيات الروايات ، إلا أن المدينة - معالم وحياة - تبرز في مواضع كثيرة ... بل إن هذه الشخصيات ما كان لها أن تحيا سوى في الإسكندرية .. فحياتهم وحكاياتهم الغرامية شكلتها الإسكندرية ... ويذهب د.ج انرايت فى كتابه " العام الأكاديمي " إلى أن الإسكندرية هي البطل الحقيقي لروايات داريل ...

و " إسكندرية " داريل ... هي رؤية مركبة في المكان والزمان ، ومن الأجناس المختلطة ، والثقافات المتباينة ...

وداريل الذي عاش بالإسكندرية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، وجد أن ذكرياته مع مدينتنا - غير كافية - في رباعيته الشهيرة - فقام باستكمالها في سنواته الأخيرة ، في روايته التي دارت معظم أحداثها بين الإسكندرية وافينيون - في خمسة أجزاء - بعنوان " خماسية اڤينيون " !

روح المكان :

فى اكتوبر عام ١٩٧٧ عاد داريل الى الاسكندريه عد غياب دام نحو ربع قرن ، مصطحبا طاقم من ال " بى . بى . سى " لاعداد فيلم عن الاسكندريه بعنوان " روح المكان " .. اقام داريل فى فندق " سيسل " الذى اعتاد النزول به ، وعادت اليه ذكرى جلساته القديمه فى بهو الفندق ، والمرآه الضخمه العتيقه تعكس صورا عادت بذاكرته الى عام ١٩٤١ حين فر الى الاسكندريه برفقة زوجته " نانسى " وهو فى التاسعه والعشرين من عمره هاربا من اجتياح الالمان لليونان ... متذكرا ايضا ما كتبه لصديقه " هنرى ميللر " : الى احدث عواصم القلب " عاصمة الذكريات " المحمله بأطياف نساء الاسكندريه - أجملهم الطبع - واكثرهن اثاره للمتاعب فى الملاعب " !

لكن الذكريا ت الوحيده التى باتت تسكنه فى هذه اللحظات هى صوره الاماكن القديمه بعد أن فقد الاصدقاء وتلاشت علاقات الحب القديمه ، وما كان ليعود الى الاسكندريه لولا اقناع ال " بى . بى . سى " حيث اصطحب طاقم العمل فى ارجاء المدينه ، محاولا التقاط جذور اقامته السابقه ، وحيث بدت له الشوارع بلا صوت أو روح !

... وتجول فى الاحياء العتيقه باحثا عن ظلال اصدقائه القدامى بدلا من تركيز الكاميرا على بقايا القصور التى اكتست جدرانها بنبات " البوجيفيليا " مثل تلك التى كان " نسيم " و " جوستين" يقيمان بها حفلاتهما ، بينما الصدأ قد علا أبوابها ، وتشهد نافوراتها الرخاميه وتماثيلها المحطمه على مجدها الزائل !

وخلال رحلة استعادة الذكريات .. ومن خلال البحث عن مقر اقامة " كافافى " .. تجول طاقم التصوير بين منازل متهالكه خلف شارع " التقويم " الى ان وصلوا الى البيت المنشود والذى يحمل طابعا أوروبيا بشارع " شرم الشيخ " والذى كان يعرف بشارع " ليبيسيوس " .. فى الطابق الثانى عاش كافافى أخر خمسه وعشرين سنه من حياته وهى فتره نضجه الشعرى .. وفيها ارتبط بصداقه وطيده مع " فورستر " ..

اتجه داريل شرقا متبعا نفس طريقه القديم " شارع فؤاد " والذى اصبح " طريق الحريه " الى ان وصل الى مقهى " بسترودس " حيث بدأت علاقته ب" ايف " سنة ١٩٤٣ ، فكتب : " فى هذه اللحظه شعرت اننى مأخوذا بذكرى إيف ، حتى يمكن القول ان نفسى لم تعد ملكى .. كان احساسا حقيقيا " !

ثم قاد داريل طاقم العمل الى المنزل رقم ٦٣ بشارع الحريه ، مرورا بمجموعه جميله من المبانى ، حيث تعرف على امرأه كان لها دور فى حياته خلال اقامته بالمدينه واثناء انشغاله فى روايته "جوستين " تلك المرأه كانت زوجته الثانيه " كلودفينسدون " التى كان يردد دائما انها افضل زوجاته !.. وهى سليلة احدى اعرق عائلات الاسكندريه ، ومن خلال " كلود " وجولاتهما بالمدينه ، تسلل داريل الى عالم اعادة الاكتشاف ، فقد ساعدته على اعادة كتابه " المدينه " و .. حياته ! .. كانت كلود مصدر الهام لكتاباته واكتمال رباعيته .. فاذا كانت " ايف " قد جسدت كثيرا من " جوستين " .. فإن " كيليا " مثلت كثيرا من " كلود " واليها كان الاهداء " الملاك الحارس"!

كان " بيتر آدم " رئيس طاقم ال" بى . بى . سى " قد طلب من داريل العثور على المنزل الذى عاش به خلال الحرب العالميه الثانيه .. وبعد مشقه ، وجدوا انفسهم فى حى " محرم بك " وحيث المنزل رقم ١٧ بشارع المأمون .. عندها تحول داريل الى حاله غريبه من النشوه والسعاده .. كان كمن وجد أخيرا كل السنين التى مضت من حياته ! .. قال داريل : " انه بالتأكيد أغرب شعور ان اجد نفسى بعد نحو أربعين عاما ، فى تلك الحديقه التى يملكها ايطالى عجوز ، وذلك البرج الصغير الذى اصلحته على سطح المنزل وقد حفرت عليه " زنزانه بروسبير " وبعض الأشعار الجميله للحصول على مشهد شخصى طبيعى ، عامين ونصف من العظمه والبهاء وحياة ورديه أيام الحرب بالاسكندريه .. لقد كانت فتره ثريه بالكتابه " ! .. وبعث داريل الى صديقه " آلان توماس " بكارت بوستال يحمل صورة فندق " سيسل " كتب عليه : " ادهشنى كثيرا التغيرات الطفيفه التى حدثت هنا ، ان مدينة كفافى القديمه لازالت تحتفظ بسحرها الرائع القديم " !

وفى تقديمه للطبعه الجديده من كتاب فورستر عام ١٩٨٢ كتب لورانس داريل : " ان الطريقه المثلى لرؤية هذه المدينه ، هى ان تتجول فيها فى هدوء وبلا هدف " ياله من اكتشاف حقيقى ورائع ، فبمجرد زوال الشعور بالغربه ، يجد العقل بغيته فى التعرف على مدينة الأحلام - الاسكندريه - حيث ينمو ويتأكد

هذا التعرف على هذا الميناء الصغير الذي يطل على البحر المتوسط ، والــذي يبدو مألوفاً إلى حد ما حتى لمن لم يعرفه ، إنها تلعــب دوراً غــير مقصــود كعاصمة ثانية لمصر وهى الراحة الوحيدة التي يجدها ساكن القــاهرة - تلــك المدينة الرابضة كعدسة حارقة بين صحاريها .

إن الإسكندرية تطل على بحر حالم ، فأمواجه الهوميريـــة تتدافــع وترتــد ، يحركها النسيم العليل من رودس وبحــر إيجــه ، إن التــنزه علــى شــاطئ الإسكندرية يشعرك على الفور وكأنك تسير على حافة الهاوية ، ما السبب فــي ذلك ؟ إنه ليس فقط تلك المدينة الإغرقية الحزينة الماثلة أمامك ، وإنما أيضــاً تلك الخلفية من الصحارى الممتدة إلى قلب أفريقيا إنها مكان الفراق الدرامي ، والقرارات النهائية والأفكار الأخيرة ، كل منا يشعر بنفسه ، مندفعاً إلى أبعــد حد ، إلى نهاية قدرته على الاحتمال ، وبــالطبع ، فــإن مدينــة الإســكندرية الكلاسيكية التي نتكلم عنها ، ماهى إلا صدى تاريخي - كيف كان ذلك ؟ لقــد انزلقت المدينة الشهيرة المتألقة إلى النسيان بوصول عمرو بن العــاص هــو وفرسانه من العرب ، وزحفت فوقها الكثبان الرملية وغطتها ... وتمطى ألــف عام أو يزيد من الصمت والإهمال ، ما بين عمرو ونابليون ... لقد كانت مــن إبداع الإنسان ، ولدت من هوى الفتى الإسكندر الذي لم يعش ليراهـــا وهــى تتحقق في الواقع ، ولكن جسده قد احضر ليدفن في قلبها ، كي يصبح إلهــها الحارس !

في الرسالة التي بعث بها عمرو إلى خليفته العربي ، وذكر فيها غزوه لهذه المدينة كتب في إيجاز جميل " لقد استوليت على مدينة كل ما يمكن أن أقــول عنها ، إنها تحوى ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠ طريـــق ، ٤٠٠ مســرح ، ١٢٠٠ محل للخضار ، ٤٠٠٠٠ يهودي " لم يتبق من هذا الجمال الفائق أي أثر ليقــوم بتحية فورستر عندما خطى أولى خطواته !

لقد وصلت إلى هنا في (١٩٤١) بعد تحرير هذا الكتاب بثلاثة وعشرين عاما وبعد ثماني سنوات من موت الشاعر العظيم قسطنطين كفافيس الذي كان صديقا لفورستر .

وياللعجب .. إني لا أستطيع أن أدرك أن شيئا ما قد تغير . فلقد كنت قادرا على مدى سنتين أن أتجول بين صفحات هذا الكتاب ، مستخدما إياه بالقداسة التي يستحقها ، ومستعيرا الكثير من ومضات حكمته كي تتزايد ملاحظات الرواية التي كنت آمل أن اكتبها ذات يوم .

إن التغيير الحقيقي والوحيد ، الذي أستطيع أن احدده ، هو ذلك الكرسي الشاغر في المقهى المفضل للشاعر ، لكن حلقة الأصدقاء مازالت متصلة من رجال أمثال مالانوس (Malanos) وبتريدس (Petrides) ، وهما ضمن من كتبوا أخيرا عن صديقهم الفريد .. وهم جميعا قد ألمحوا إلى تلك المدينة الخيالية التي تتواري تحت هذه المدينة العادية.

كانت الإسكندرية تبدو لأغلب الناس كمكان باهت ، به فقط طرق جيدة ، وكثير من المطاعم الفرنسية التي تروق لهم ، وهم يكررون دائما :" لا شئ هناك يمكن أن يرى " .

وهذا أيضا كان حقيقا ، فعمود بومبى كان كارثة جمالية ،، ومكان جزيرة فاروس صار خارج نطاق المدينة ، ومقبرة الاسكندر توارت تحت آلاف التخمينات ، لكن المدينة ظلت لكثير من بحارتنا وكأنها إينوستوس " ميناء العودة الآمنة " كما كانت في عهد هوميروس .

على الشاطئ في ١٩١٥ كانت هناك مدينة صغيرة ، يتقاسم مغانمها اليونانيون والفرنسيون والإيطاليون وكثير من الأمم التجارية الأخرى ، ولكنها لو قورنت بسانت تروبيز – ذلك المنتجع الفرنسي الصغير - أو بيبروت – تلك المدينة الشرقية – فإنها سوف تتفوق عليهما ، كانت بها مدارس جديدة

بالإضافة إلى المدرسة اليونانية والمدرسة البريطانية العامة ، وقدمت هذه المدارس الكثير من أجل التحدث باللغة الإنجليزية ببراعة في هذه المدينة .

وإنه لعمل يدعو للألم ، أن نستحضر قصة هذه المدينة حتى ١٩٧٧ م وهو تاريخ آخر زياراتي لها ، فالكثير مما تركته فيها قد زال ، والأجانب من طائفة رجال الأعمال يتزايدون واللغات الخمس التي كانت مستخدمة هنا بشكل طبيعي في المعاملات في الإسكندرية قد اختفت تماماً وصار الميناء مجرد مقبرة بلا حياة ، وبلا حركة تنعشه ، فغزل عبد الناصر الطويل للشيوعية قد أنتج أثره الحتمي المميت ، والثورة الثقافية الصينية التي خلبت لب طالبات الجامعة سرعان ماخبا سحرها .

فاتر الهمة ، وبلا روح ... يذهب رجل الأعمال المعاصر اليوم لأداء مهامه دون أي حماس ، والمقاهي مازالت تحمل أسماءها القديمة ، باستوريدس ، بودرو ، لكنها بلا زبائن تجعلها تتلألأ بالضياء والموسيقى .

كل الملصقات والإعلانات الأجنبية قد اختفت ، فكل شئ هنا مكتوب بالعربية في زماننا هذا ، إلا أن إفيشات الأفلام الأجنبية مكتوبة بعدة لغات ، وبعناوين فرعية باللغة العربية ، والان فإن الرتابة المملة هي ما يسود في هذه المدينة ، إنه لمن دواعي الغضب أن تجد كل الأدوية في الصيدليات معروضة بأسمائها العربية فقط ! حاول أن تحصل على بعض الأسبرين أو أقراص للحلق وسترى ما سوف يحدث .

هناك في غرفتي القديمة المألوفة في فندق سيسل قضيت أسبوعا ، لقد صارت الآن مجردة من كل أبهتها ، يتردد داخلها صوت رياح البحر الآتي من تحت الأبواب أو من خلال النوافذ .

إننى رجل بلا جذور ، سواء كان هذا بسبب أصولي الوراثية ، أو من خلال تجاربي في الحياة وثقافتي الخاصة ، وعندما جئت إلى هنا لم يكن هناك أبدا أي سبب لتوقع انتهاء الحرب ، أو أنني سوف أغادر مصر يوماً ما ، إنه لمن

حسن الحظ أنني كنت بلا جذور ، بسبب أصولي الوراثية وبسبب تجاربي في الحياة وثقافتي الخاصة إننى فقط مجرد ساكن لمستعمرة .

وإنه لمن الغريب أن فورستر إبن الأصول الإنجليزية الطيبة – كان عليه أن يستجيب لغربته بهذا الشكل الإيجابي ، واضعاً لنفسه جذوراً جديدة في هذه التربة الغربية ، وإننا نحن الرابحون من هذا حقاً !

كان كفافيس يسكن شقة صغيرة هنا ذات يوم ، صارت الآن بنسيوناً صغيراً من ذلك النوع الموصوف في كثير من روايات الشرق الأوسط ، بنسيوناً متواضعاً بل ورثا إلى حد ما ، لكن كتبه وأثاثه تم إنقاذها وترتيبها في متحف صغير تم إنشاؤه لهذا الغرض في الطابق الأعلى من القنصلية اليونانية ، ولكي يقوم المرء بزيارته ، عليه أن يركب الترام الصغير القديم الذي يرتج يقرقع ، وهو ممتلئ بهؤلاء المزوغين المتعلقين على جانبيه ، والذين يختفون بمجرد رؤيتهم لوجه المفتش . كم هي رائعة تلك الحجرة الصغيرة الخاصة بكفافيس والتي تم إنشاؤها في مبنى القنصلية الطلق الهواء ، إنك هنا تستطيع أن تجلس على ذات المكتب الذي خط عليه تلك القصائد الشهيرة : إيثاكا ، البرابرة ، الأله يتخلى عن انطونيو ... أو قصيدة " المدينة " وهى تعتبر من افضل هذه القصائد ، بل هي تعتبر الأثر الحقيقي الذي أبدعه لمدينة الإسكندرية الحديثة ، ويمكن أن تتصفح بعض كتبه وتحس أنه لم يكن يمتلك الكثير منها ، وأنه كثيراً ما جلس على هذه المقاعد والكراسي غير المريحة وهى من طراز بيزنطى حديث كانت تعتبره بيوت الطبقة المتوسطة " موضة " في هذه الفترة من الزمان .

وإنه لمن سوء الحظ أن يكون التمثال النصفي الوحيد لهذا الشاعر غير جميل ولكنه – وبشكل عام – كان وسيلة للتعبير عن الإجلال والتوقير لهذا السكندري العظيم .

وللمرة الثانية تنزلق الإسكندرية إلى النسيان ... يجب أن تغفروا لي هذا الاكتشاف ، وهو أن المدينة الحالية تئن أمام تأثير المحن ، خاصة عندما يفكر المرء في كنوز القاهرة ، أو النمو الزراعي الهائل ، أو في الآثار القديمة التي تعطى صعيد مصر سمعته الرنانة – ربما على مر الأيام تأتى الأحداث السعيدة مرة أخرى ، مجددة للينبوع السحري وجاعلة إياه مثيرة للذكريات !

جوستين :

******

وفى رحلة البحث عن واقع الاسكندرية في رباعية داريل ... ومحاولة تجميع ملامح صورة لـ " مدينة مفقودة " ! ... من إخلال ارتياده لمقاهي المدينة وباراتها وشوارعها وساحاتها ، مساجدها وكنائسها ومعابدها ، ومراسمها ، موالدها الإسلامية والمسيحية .. أسواقها وكل صخب الحياة متعدد اللهجات والألوان ! .. لم يكن كل ذلك سوى محطات لالتقاط الأنفاس والتزود بشحنات داخلية تنفث الروح والدفء في شخصيات رباعيته ...

ويحدثنا عن " المدينة التي أحبها " ... عندما تشرع أجساد الشباب الخاملة في البحث عن صحبة عارية ! ... ويجلس الفتيان في المقاهي الصغيرة " حيث كان بلتازار وشاعر المدينة الشيخ – كافافى يترددان كثيراً ، يلعبون النرد تحت مصابيح البترول ... يتذوقون طعم الجير الحي مع كل نسمة من نسمات الصيف " .

وفى انتظار " جوستين " ... التي تأتى – غالباً – متأخرة بضع دقائق " لعلها قادمة لتوها من لقاء في غرفة معتمة " !... تتفرج شفتها حول فمها كأوراق الزهر رطبة وفتية ...

" كان على أن أحضر إلى هذا المكان حتى أعيد من جديد تشييد تلك المدينة في ذهني تشييداً كاملا ، المناطق التي تخيم الكآبة عليها كما رآها الرجل الشيخ مليئة بحطام حياته الأسود ، طنين عربات الترام وهى تنقض

فوق قضبانها الحديدية تخترق ميدان " الأزاريطة " الملون بلون اليـــود . أوراق بلون الذهب والفسور والمغسيوم . هنا كثيراً ما التقينا " !!

وعندما كانت " جوستين " تشعل سيجارتها وتجلس فوق الســـرير وقـــد أمسكت كعبيها الدقيقين بيديها ، وهى تتلو في بطء تلك الآبيـــات الرائعـــة للشاعر اليوناني الشيخ عن قصة حب .. وتلمس في رقة كل مقطـــع مـــن شعر هذا المفكر اليوناني الساخر " بالقوة الغامضة لتلك المدينة وأجواءهـــا المرهقة عندئذ أدرك أنها " ابنة حقيقية للإسكندرية " !! .

وينسل من حفلات الاستقبال " الفخمة المملة " التـــي يقيمـــها " نســـيم " لرجال الأعمال و " غاياتها السياسية الغامضة " .. إلى المرسم والمكتبـــة حيث يجد سعادته الحقيقية ، مثلما يجدها عندما يلقى " بومبال " في محـــل " منجميان البابليونى " الحلاق على ناصية شارع " فـــؤاد الأول " و" النبـــي دانيال " !

ويجوس بنا خلال أماكن عديدة تتصل بحياة مدينتنـــا ... مـــن " نـــادى السماسرة " حيث يجلس سماسرة القطن يرشفون قهوتهم ويدخنون السيجار الفاخر ... إلى " نادى اليخت " برأس التين ... ماراً بعربات الحنطور التي اسماها " عربات الحب " ! ... والتي تتسكع صعوداً وهبوطاً على شـــاطئ البحر !

ويهرع مع " ميلسيا " خلال متاهة الأزقة قرب " القنصلية البولنديـــة " حيث تنتهي الحوانيت عند زرقة السماء " كنا نخطو إلى ليل الإســـكندرية الأبيض كالحليب ، المشع كالبحر ، نخطو نحو نجمة الصباح التي ترقـــد خفاقة فوق سور المنتزه الأسود المخملي الذي تلامسه الريح والأمواج " !

ثم الحلم بـــ " جنة عدن " في الأحياء الفقيرة بـــ " المدينة البيضـــاء " ... ومجتمعاتها الممزقة " كفروع الأشجار التي ينقصها الجذع " والتي لاتحمل أي شبه لتلك " الشوارع الجميلة التي أقامها ونسقها الأجانب " ... شـــارع

باب المندب ، شارع أبو الدردار ، مينا البصل ، النزهة ، حديقة الزهـور و " ذكرى بعض القبلات " ! ... أو محطات الأتوبيس بأسـمائها الغريبـة مثل : سابا باشا ، مظلوم ، زيزينيا ، باكوس ، شوتز ، جانـاكليس .. " إن المدينة تصبح عالماً عندما يحب المرء أحد سكانها " ! .

ومن لقائه الأول بـــ " جوستين " عندما شاهدها فـــي إحـدى المرايـا المذهبة الإطار بمدخل فندق " سيسيل " ملتقى الأثرياء ونجوم المجتمـع ... إلى قبلة الوداع الناعمة بـــ " محطة الإسكندرية الرئيسية " حيـث النـدى الثقيل كالموت ، وضجة العجلات وهى تشق أرصفة الشـوارع الموحلـة الزلقة ، وممرات من الظلام كالدموع في واجهة مسرح كئيبة ! ... متذكراً خلال إحدى النزهات الطويلة في ضوء القمـر أن " جوسـتين ومدينتـها متشابهتان في أن لكل منهما نكهة قوية دون أن يكـون لـها شخصيـة حقيقية"! .

وعندما وصله خطاب يعرض عليه عقداً لمدة عامين للعمـل مدرسـاً بمدرسة كاثوليكية في الصعيد ، أدرك أن موافقته ستغير كل شئ في حياته وتحرره " من شوارع المدينة التي تلاحقه حتى في الأحلام " ! ... محـدداً موعداً يفصله عن المدينة التي وقعت له فيها أحداث كثيرة وخطيرة جعلتـه يسرع نحو الشيخوخة ... ولفترة محدودة من الزمـن سـتنبض الحيـاة " ستتوهج نفس الشوارع والميادين في خيالي كما يتوهج الفراعنة في التاريخ " ... ثم ذلك الإحساس " بإيقاعات الإسكندرية الذي ينتقل عـبر الشـوارع الحارة إلى الأجساد التي لا تستطيع أن تترجمها إلا إلى قبلات جائعة " !

وفى الطريق لزيارة " ميليسا " بالمستشفى . وحيث لم تبد المدينة أبـداً جميلة مذهلة كما بدت في ذلك الصباح الناعم ! ... متلقياً ريحاً خفيفة قادمة من " الميناء " على خده الخشن " كقبلـة صديـق قديـم " ... و " بـدت الحوانيت على طول – شارع فؤاد – وقد اكتسبت كل بريق بـاريس !...

وفى الحدائق المشذبة كانت المربيات تدفعن عربات الأطفال ، وقطارات الترام تهرس الأرض تحتها وتصلصل .. لم أستطع أن استوعب كل هذا وأنا نشوان بجمال المدينة التي كدت أنساها ، وخارج - مبنى البلدية جلس الكتبة المحترفون يثرثرون بطريقة ودية " !!

بلتازار :

*****

هل قال داريل عن الإسكندرية ما يكفى ؟ ... هل سقط - مرة أخرى - أسير الحلم بها وبذكرى سكانها ؟!... وهو الذي ظن أنه قد أودع أحلامه في سلام وأمان فوق الورق وقد عهد بها إلى حجرات الذاكرة المنيعة !... " المدينة نصف الخيالية - مع أنها حقيقية تماما - تبدأ فينا وتنتهي ، إن جذورها تكمن في ذاكرتنا ... لماذا يتحتم على أن أعود إليها ليلة بعد أخرى " ! .

ويعترف بأنه ليس في مقدوره القول بأنه قد نسى المدينة " لقد تركت ذكراها تغفو وتنام ، ولكنها يقينا كانت هناك ، معلقة في خاطري كالسراب الذي غالباً ما يراه المسافرون " ... وفى رحلة العودة من أزمير على سفينة البريد ، يقول " بلتازار " بعد ساعتين من الإبحار " رأينا سراب المدينة منعكساً على صفحة السماء ، كان سراباً مضيئاً رائع التفاصيل ، وفى مقدور ذاكرتي تحديد ملامحها بوضوح : قصر رأس التين ، جامع النبي دانيال .. كانت الصورة في مجملها كأنها تحفة رسمت بالندى الصافي "!! ... والإسكندرية الراقدة على بعد مئات الأميال البحرية " لا يقل واقعها - في الحقيقة - عما يمكن تخيله عنها " !

وتنتصب المدينة - مرة أخرى - في خياله ، وكتل الأحجار الرملية تحد طرف الصحراء ، حيث رأى " ألوان الحب وحبائل الشهوة ، الخير والشر ، الفضيلة والشذوذ ، الود والقتل ، تتحرك جميعها في أركان شوارع

الإسكندرية وميادينها المظلمة ، في المواخير وقاعات الاستقبال ، تتحــرك كمجموعة كبيرة من ثعابين الماء " !

ويرسم صورة قلميه رائعة لميناء الإسكندرية فيقول :

" الشمس الغاربة أفرغت طرق الميناء من كــل الأشــياء إلا الظــلال السوداء للسفن الحربية الأجنبية وهى ، رغم كل ذلك ، قد خلفت وراءهـا ذلك القبس الرمادي الرجراج – وتلاعب الأضواء دون لون أو طنين فـوق سطح البحر الذي ما يزال مرقطا بالأشرعة ، والقوارب الصغير تتســابق إلى مراسيها ، تتحرك فوق قاع الميناء الداخلي تفر داخله خارجة ، فيمـا بين السفن كفئران بين أحذية قرويين بدائيين . وتحــرك صــف المدافــع البازغة فوق سطح السفينة الحربية " جان بارت " في بطء ، ثــم مــالت وعادت تستقر في هذا الصمت الذي خيم على المكـــان ، وقــد صوبــت فوهاتها إلى قلب المدينة الوردي ، والذي كانت مآذنه العالية ما تزال تبرق بلون الذهب في آخر شعاعات الغروب ، وأسراب حمام الربيـــع تتــلألأ كالنثار وهى تستدير بأجنحتها نحو الضوء .

ألواح النوافذ الزجاجية الكبيرة ، ذات الأطر النحاســية ، فــي نــادى اليخوت ، تضوي بالألوان كالماس . وتلقى بضوء متألق فـــوق الموائــد الثلجية البياض ، وما عليها من طعام ، فتشعل الكـــؤوس والمجوهــرات والعيون بلهيب جامح مضطرب " !...

هي كلها الإسكندرية – المدينة – التي لاتعى شاعريتها والتـــي مثلتــها الأسماء والوجوه التي صنعت تاريخها ! .

ثم يصف المظاهر الاحتفالية بعيد الأضحى ، فيقول :–

" كان المطر ، في الخارج ، في الميدان بنخيله التي قرضتـــها ريـــاح البحر ، يتساقط رذاذا ، كان اليوم هو العاشر من ذي الحجــة ، أول أيــام عيد الأضحى ، وجماعات متناثرة من المواكب الكثيرة تتجمع في أرديتــها

الملونة ، تحمل البيارق الحريرية الكبيرة ومجامر البخور ، شعائر الدين الذي يتشرفون بالانتساب إليه ، وينشدون مقاطع من الذكر والأدعية : ذكر وأدعية النوبيين المنسية ، والتي تعيد كل عام بعثها الكبير في جامع النبي دانيال . كان الحشد متألقاً ، أرقطاً ، بألوان بدائية . وهدهدت الدفوف الهواء ، بينما جاءت ، من هنا ومن هناك ، عبر فترات الصمت التي كانت ترين فوق الشدو والصرخات ، الثرثرة المفاجئة للطبول الطويلة ، وجلودها تشد في بطء فوق فحيح الجمرات . وأنت الخيول وانتفخت الأعلام بشعاراتها كالأشرعة في أمسية ترصعها الأمطار . ومرت عربة محملة ببغايا الحي العربي وهن في أردية ملونة (وقد تعالى زعيقهن وصراخهن حادا مجلجلا) ، وشباب صبغوا أنفسهم بالألوان يغنون على صرير الصنج وخربشات الآلات الوترية . كان المنظر كله بديعا زاهي الألوان كحيوان استوائي " !

و " ناروز " الذي عشق " كليا " ... التي لم يتحدث معها أبداً ، ولم يرها إلا مرتين ! ... كان يذهب إلى المدينة في كل " كرنفال راقص " آملاً أن يلتقي بها مصادفة ... بينما كليا – في الحقيقة – كانت تمقت هذه الكرنفالات وتفضل أن تقضي وقتها في هدوء تقرأ وترسم في مرسمها ! ... وذات صباح ربيعي ، يستقل سيارته الكبيرة الفضية ، ويمضي في بطء عبر المدينة ، يتفحص حدائقها ، وميادينها ومبانيها بعين آمنة وادعة و " ما أن بلغ البحر حتى استدار عبر الكورنيش اللامع في ضوء الشمس ، ليرقب للحظة ، البحر الناعم والسماء الخالية من الغيوم " ... ثم مضى ولم يوقف سيارته " إلا مرة واحدة ليشترى قرنفلة ، من بائع زهور عند ناصية شارع سعد زغلول ، ليضعها في سترته ، ثم توجه إلى مكتبة ... حيث بدت له المدينة اكثر جمالاً من أي وقت مضى " ! .

ويسجل داريل انطباعاته عن المدينة " التي أحبها " وتقطن ذاكرته فيقول:–

" المدينة التي تقطنها ذكرياتي لا تمتد في تاريخنا ، إلى الوراء فقط ، ترصعها أسماء العظماء الذين تركوا أثرا عند كل موقع في سجل حياتها ، بل هي تبزغ ، أيضا ، في الحاضر الذي نعيشه ، وسط ، إن صح القول ، معتقداتها المعاصرة وأجناسها : مئات الدوائر الصغيرة التي يخلقها الدين أو المعرفة والعلوم ، والتي تلتصق في نعومة كالخلايا لتشكيل سمكة هلامية ضخمة ترقد متمددة ، هي الإسكندرية اليوم . وتعيش الجماعات وتتواصل ، وقد التقت هكذا عشوائياً ، بفعل المدينة وإرادتها ، وهي المعزولة فوق رأس برناتئ في البحر ، لا يشد من أزرها غير بحيرة مريوط المالحة والتي تبدو كأنها مرآة للقمر ، والصحراء الخشنة غير المستوية والممتدة خلفها (وقد غيرتها ، في نعومة ، رياح الربيع ، فبدت كثبانها ناعمة كالحرير ، جميلة كقطع السحاب لا تثبت على حال) – جماعات الأتراك مع اليهود ، العرب والقبط والسوريين مع الأرمن والإيطاليين واليونانيين ، تتماوج فيما بينهم رعشات الأعمال التجارية المالية كما تتماوج الريح في حقل الحنطة ، تجمعهم المهرجانات وحفلات الأعراس والصفقات ، كما تفرقهم أيضا . وتتردد أسماء الأماكن على خطوط الترام العتيقة ، بقضبانها التي تبدو كأخاديد رملية ، صدى الأسماء المنسية لهؤلاء الذين انشأوا المدينة – وأسماء القباطنة الموتى الذين كانوا أول من هبط على شاطئها من الاسكندر إلى عمرو ، هؤلاء الذين أقاموا فوضى شهوة الجسد والحمى ، من حب المال والتصرف ، أين يمكن لك أتجد مثيلا لهذا الخليط على وجه الأرض ؟ !

وتضاء المدينة البيضاء ، عندما يهبط الظلام ، بآلاف ثريات الحدائق العامة الأبنية ، تتصاعد فيها الأنغام الناعمة الروحية من موسيقى طبول

المغرب أو القوقاز ، فتبدو كباخرة ضخمة من بلور ترقد هناك ، وقد ألقت مراسيها إلى قرن أفريقيا ، وراحت انعكاساتها الماسية والأشبه بالعقيق الأزرق المشتعل تتلوى ، تتموج ، كقضبان مصقولة في مياه الميناء الزيتية بين السفن الحربية.

وتغدو المدينة في عتمة الغسق ، كدغل أرجواني ناشز له نسقه الخلص ، تصبغه الألوان كأنما هي ألوان الطيف صادرة عن منشور مكسور ، وتتكاكأ مرتفعة في سماء الغروب اللؤلؤية أبراج شاطئ البحر الطويلة الشاحبة ، والمقاهي البربرية حيث يرقص الزنوج على ضربات الأصابع فوق الطبول أو أنغام النايات الرقيقة الحالمة " !

عيد " ستنا مريم " !

****

يتوارث شعب مصر الاحتفال بالمناسبات والأعياد القومية والدينية – مسلمين وأقباط – وحتى يومنا هذا ، تتجلى مظاهر هذه الاحتفالات متألقة بمشاركة المسلمين في المناسبات المسيحية – والعكس – وتكاد تتشابه الطقوس الاحتفالية بموالد الأولياء والقديسين ..

وقد خلد داريل ذكرى الاحتفال بـ " عيد ستنا مريم " في الأربعينيات من القرن الماضي ، فقال :

" كان مما يميز مهرجان الاحتفال بستنا مريم " أنه لا يقتصر على الأقباط فقط ، باعتباره عيد قديسة مسيحية قبطية ، بل كان يشارك فيه ويستمتع به كل السكان بما فيهم المسلمين ، فالإسكندرية ، رغم كل شئ ، جزء من مصر ، حيث يعيش معا كل صنوف البشر وألوانها .

وبزغ في الظلام مخيم كامل من العشش والمواخير والدكاكين – مدينة كاملة أضيئت ، بطريقة لائقة ، بقناديل الزيت والنفط ، بالكلوبات والمجامر النحاسية ، بأضواء الشموع واللمبات الكهربية المبهرة المعلقة

على حبال مشدودة . وسار ناروز في زحمة الناس ومنخاريه يتشربان روائح الطعام الزكية والحلوى ، والياسمين الذابل والعرق ، وتتسمع أذناه طنين الأصوات التي شكلت تلك الخلفية المألوفة التي تصاحب المواكب الكبيرة وهي تخترق المدن ، تتلكأ في طريقها عند كل كنيسة لتلاوة بعض النصوص المقدسة ، ثم يصل الموكب بالتدريج ، خطوة فخطوة ، إلى موقع الاحتفال .

كانت هنالك الطرائف والبدع متناثرة : الدببة الراقصة والاكروبات ، أكلوا النيران ينفثون من أفواههم ألسنة لهب تطول ستة أقدام ، الراقصون في ملابسهم الرثة وطواقيهم الحائلة اللون . كل الأشياء التي تبعث البهجة في نفوس الغرباء كانت تبعث البهجة في نفسه أيضا ، فهي مألوفة له تماما – أنها جزء عميق الانتماء إلى حياته ذاتها ، وسار في لألأ الضياء ، كما سار الطفل الذي كأنه يوما ، يقف هنا وهناك ، بعينين باسمتين يحملق في بعض مشاهد المهرجان التي اعتادها ، وساحر يرتدى ملابسا مزوقة رخيصة ، يخرج من كمه أعدادا لا حصر لها من المناديل الملونة ، كما يخرج من فمه عشرين كتكوتا صغيرا حيا وهو يزعق طوال الوقت بصوت طائر من طيور البحر : جلا – جلا – جلا ، والقرد " ما نولى" وقد إرتدي قبعة من ورق يدور ويدور حول مربطه ممتطيا ، في براعة ، ظهر عنزة وترتفع على جانبي الطريق العشش والأكشاك الكبيرة ، وتماثيل مصنوعة من حلوى تبدو رائعة بما عليها من زواق رخيص ، تصور أبطال قصص الحب والمغامرات ، لأناس عاشوا في الحكايات الشعبية المأثورة للدلتا – أبطال مثل أبو زيد وعنتر ، وعشاق مثل يونس وعزيزة ، كان يسير على مهل في لامبالاة تلقائية ، يقف لحظة هنا يستمع إلى الرواة ، أو ليشترى تميمة تجلب له الحظ من "حسين" الواعظ الأعمى

المشهور . والذي وقف في عظمة كشجرة السنديان ، في الضوء الشاحب ، يتلوا أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين .

وتناهت من خلف حجب الظلام المحيط أصوات نقرات واهية للاعبي العصي خافتة الصدى ، وقد طغى عليها الهدير الصاخب للموكب القادم وقد انفجر فجأة بموسيقى وحشية – طبول جلد الجمال بأصواتها الجوفاء الممدودة المثيرة والتي ترتفع حينا فتغرق في خضمها موسيقى الناي العميقة المتهدجة ، ثم تخلفت حينا فينتعش صوت الناي ، وارتفعت صرخة إنهم قادمون ، إنهم قادمون " . وراح الصبية يركضون هنا وهناك بين الأكشاك والعشش كالفئران . وتدفقت في حلق زقاق ضيق جموع أشبه بحلقة نار تزداد أتساعا . الموكب البشرى يندفع متمايلا يتقدمه البهلوانات وأقزام الإسكندرية يتقافزون ، يتبعهم الموكب الطويل العجيب الغريب للفرسان حاملي الأعلام والبيارق ، والجياد تتماوج صعودا وهبوطا في مد من ضوء روحاني ، يتابع وطؤها تلك التقلصات الموسيقية الوحشية – وترتفع ثرثرات النايات في كل الأنحاء ودقات الطبول العنيفة أو الهزات المرتعشة المثيرة للطار والرق والدراويش يضربون عليها طبقا لعاداتهم ، بينما يتجهون إلى موقع الاحتفال . وانفجرت كلمة " الله الله " من كل حنجرة.

وجاء دراويش الطريقة الرفاعية ، الذين يستطيعون وهم في غيبوبتهم الروحانية السير فوق جذوات النار أو شرب الزجاج المصهور أو أكل العقارب الحية أو الرقص إلى مالا نهاية كزنبرك مشدود حتى يغيض الواقع ويسقطون لاهثين دائخين كالطيور ، وكانت البيارق والمشاعل والمجامر الكبيرة المكشوفة المليئة بالخشب المشتعل ، والفوانيس الورقية الكبيرة والتي كتبت عليها بعض النصوص الدينية ، تشكل حلقات أو أشكال من الإضاءة تخترق ظلام ليل الإسكندرية ، صاعدة ، هابطة ،

وقد إكتظ المكان ، الآن ، حتى الانتفاخ ، بالمتفرجين المتكالبين علـــى الموكب ككلاب قوية كبيرة ، يتصايحون ويتدافعون ، وطوفـــان الموكـب يتدفق بموسيقاه الوحشية (ربما تكون هي ذات الموسيقى التــي سـمعها انطونيو وهو يلفظ أنفاسه في قصيدة كفافى) يحيط بظلام الميدان الكبـير ، ينشر حوله خيالات عصبية مرتعشة للجلابيب والوجوه والأشياء التي بــلا مضمون والتي انبثقت ألوانها تصبغ أطراف السماء ، كان الناس يشـعلون حماس بعضهم البعض .

وارتفع ، فوق كل ذلك ، صفير الآلات البخارية التي تعمل في مخــزن البضائع المعتم ، وصفارة باخرة تشق طريقها المتعرج عبر الميناء ، وقـد بدأت إبحارها إلى الهند (وكأن المدينة تذكرهم فجـــأة بنفســها ، بقــوى وحاجيات مستودع هائل) . واحتوى الليل الجميع - وغانية تغنى بصــوت أجش مثلوم ، بلكنة سكندرية ، على إيقاع خبطات الأصابع فوق الطبلـــة ، وصراخ الصبية الذين يركبون الأراجيح الدوارة المرهقة ولعبـــة أوكــار الأوز ، والديكـــــة المتصارعة ، وحواة الثعابين ، وعجائب المخلوقـات (زبيدة المرأة الملتحية والعجل ذو الأرجل الخمس) والمســـرح الكبـير المعد من الخيش ، والذي يقف الرجال أمامه يرقصون عضلاتهم ، عرايـا إلا من قماش يستر عوراتهم ، ليعلنوا عن مهاراتهم ، يقفون بلا حـراك إلا من تموجات أجسادهم بصورة رائعة لاتصدق ، عضلات الصدر والبطـن والمتن تعمل ، تختلج بطريقة أشبه ببرق الصيف الخادع .

وقف ناروز مسحورا يتلفت حوله ، ثملا يستمتع ، يتلذذ ، بكل ما يرى، وقد ترك قدماه تسير على غير هدى في متعرجات مدينة الضــوء تلــك . أفلت ضاحكا ، عند نهاية أحد الممرات ، من قبضة دســتة مــن الفتيــات اللواتي يمارسن مهنتهن الفظة في عشش من خيش عليه رسومات ، فيمـــا بين الأكشاك ، بلغ العشش الباهرة الإضاءة حيث يجرى الختان ، وكـــانت

أكبرها وأكثرها زخارف ملونة تلك التي لمحمود عناية الله ، معلم عبد الله ، وقد بدت فاخرة بما فيها من صور مثيرة توضح مراسيم الختان مرسومة في لوحات ذات أطر ، كما تدلت من الباب قارورة كبيرة مليئة بـــالعلق ، كان رئيس الرابطة بنفسه موجودا في هذه الليلة ،يلقى في النـــاس خطبـــة رنانة يعدهم فيها بالختان المجاني للمؤمنين الفقراء الذين يعجزون عن دفـع الأجرة المعتادة ، كان صوته الجهوري يدوي هادرا ، بينما وقف مساعداه على أهبة الاستعداد خلف الكرسي ، الأشبه بكرســـي ماســح الأحذيـــة ، بحواشية النحاسية ، وفى يد كل منهما موس جاهز للعمل ، وكان يجلـــس داخل العشة اثنان متقدمان في السن يرتديان حللا سوداء ويرشفان القـــهوة وقد بديا كعالمين من علماء فقه اللغة في مؤتمر ما !

كان العمل راكدا ، وزعق العجوز مناديا ، " أقبلوا ، أقبلوا ، تطــــهروا أيها المؤمنين " . كان يقف واضعا إبهاميه وراء طية ســـترته القديمـــة ، والعرق يرشح على وجهه ، ينثال من تحت طربوشـــه الأحمـــر . وكـــان يجلس على مقربة منه ابن عم له وقد استغرق في عمله يرسم وشما علـــى صدر ذكر مومس بهي الطلعة ، تنساب خصلات شعره المدهون بـــالزيت على ظهره وقد كحل عينيه وصبغ شفتيه ، وإلى جواره لوح زجاجي لامع رسمت عليه مجموعة منتقاة من الرسومات حتى يختار منها الزبـــائن مـــا يشاءون – أشكال هندسية تخص المسلمين ، آيات قرآنية ، تســـجيل نـــذر معين أو أسماء من يحبهم الراغب في الوشم ، كان الرجل يملـــؤه ثقـــوب الوشم فوق الجلد لمسة بعد لمسة ، كأستاذ في شغل الإبرة ، ويبتسم مـــن حين لآخر وكأنه يضحك لنكتة خاصة ، يعمل في دأب لاستكمال الصـــورة التي يشكلها بوخز الإبرة ، بينما العجوز يزأر ويزعق بالقرب منه " أقبلـــوا ، أقبلوا يا مؤمنين " .

وهنالك ، في الأراضي الداخلية المظلمة الموازيـــة للســاحل ، حيـث المنازل خربة في أكوام حجرية ، مهجورة ، خاوية ، حديقة صغيرة بـــها ضريح يحدد محور هذه الضجة ومعناها ، هنا أمـــام شــمعة مخروطيــة وضاءة ، كانت تتلى الصلاة المسيحية من أجل القديسة المسيحية ، بينمــا يمور حولها زحام الإسكندرية الداكن وفيضان البشر فيـــها ، دســتة مــن المعتقدات والأديان تشارك في احتفال أضفى الزمن عليه قداسة ، غـــدت ملكا للكافة ، وقد تكرس له موسم معين ومكان معيـــن بعـــد أن طمســت الأسس التي قام عليها أصلا ، والمأثور عنه فيما مضى ، والرمز الـــذى كان يمثله ، إن كل الأديان واحدة بالنسبة لبلد متدين ، كان المهرجان يدوى بزياط الأنوار والموسيقى ، بينما كان المؤمنون يقدمون صلواتهم لقديســتهم المختارة . " !!

فينوس والمدينة المقدسة !!

****

ويتنقل داريل من الحديث عن جوستين " فينوس سكندرية مـــاكرة " ... وشخصيتها المتقلبة المتمردة الغامضة ، وسلوكها الذي يؤهلها للبنثيون !... إلى واقع الإسكندرية " المدينة المقدسة المبتذلة !... التي يتنقل فيها المــرء ما بين ثيوقراط وأفلاطون والترجمة السبعينية اليونانية للتـــوراة ، خـــلال مستويات وسيطة من سلالات متعددة ... والتراكمات البطيئة للزمان ذاتـــه فوق المكان ".

واحتفالات رأس السنة في الإسكندرية هي " حدث اجتماعي خـــالص " ... كرنفال سنوى يتخلص فيه الجميع من قيودهم وعبوديتهم الشخصية !... وأدع لقلم داريل يصف لنا مظاهر هذا الكرنفال : " فيما اعتقد – أن هـــذا الكرنفال – قد نشا على يد ثلاث أو أربع عائلات كاثوليكية كبيرة – ربمـــا لأنه أمدهم بمتعة الإحساس بانتمائهم إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط

، إلى فينيسيا وأثينا . واليوم ، لا توجد ، على أي حال ، عائلة ثرية واحدة ، لا تحتفظ بصوان ملئ بملابس الدومينو المخملية التي تستخدم خلال تلك الأيام الثلاثة من النزق والحماقة – سواء كانت هذه العائلة قبطية أم مسلمة أم يهودية – ويأتى هذا الكرنفال ، في الأهمية ، بعد ليلة رأس السنة كأكبر احتفال مسيحي خلال العام – ويسيطر التنكر على أيامه ولياليه الثلاث : التنكر الذي يمنحه الدومينو المخملى الذي يحجب الهوية والجنس ، يمنع من التميز بين الرجل والمرأة ، الزوجة والعشيقة ، الصديق والعدو .

انطلقت وقحة أعمال المجون والضلال في حماية سادة الفوضى الذين ترأسوا احتفالات هذا الموسم ، ما أن هبط الليل حتي بدأ المقنعون في الظهور في الشوارع – أفرادا ثم أزواجا ثم في مجموعات صغيرة يحملون في الغالب الآلات الموسيقية والطبول ، يضحكون ويغنون وهم في طريقهم الى واحد من البيوتات الكبيرة أو الأندية الليلية حيث يستحم الهواء البارد في دفء موسيقى الجاز الزنجي – ذلك النخر المتخمم بمزيج الساكسفون والطبول ، كانوا ينطلقون من كل مكان ، في ضوء القمر الشاحب ، أشبه برهبان يرتدون القلنسوات ، كان التنكر الذي يضفي عليهم تماثلا خارجيا يتسم بالكآبة والتعصب ، يروع المصريين ذوى الجلاليب البيضاء ويملؤهم فزعا – إن رعشة الخوف تضيف طعما كالتوابل إلى الضحك الوحشي المنهمر في المنازل ، تحمله نسمات الشاطئ إلى المقاهي التي في مواجهة البحر ، بهجة تبدو بصخبها وضجيجها وكأنها ترتعش على حافة الجنون .

ويتسلق المنازل في بطء ، قمر الربيع المائل إلى الزرقة ، ينزلق فوق المنائر إلى أشجار النخيل وهى تقرقع وتطقطق ، كاشفا المدينة تتمطى كحيوان خارج من بياته الشتوي ، وقد أخذت تنهل من موسيقى أيام المهرجان الثلاث .

وتنشط حرارة الحياة كلها في المدينة ، فيتنامي الدفء بإيماءات مقـــدم الربيع الغامضة . الكرنفال تحية وداع لجسد العام الذي مضى ، يخلع عـن نفسه اكفان مومياء الجنس ، يخلع هويته واسمه ، ويخطو عاريا يســـتقبل الحلم الآتي!..

كان شاطئ البحر يزهو بالأضواء رغم الشتاء ، وخطوط الكورنيـــش الطويلة المنحدرة تتثنى بعيدا ، تتلاشى في أفق يميل إلى الـهبوط ، وآلاف النوافذ الزجاجية تشع بالأنوار ، وخلفها جلس سكان الحي الأوروبي مـــن المدينة كأسماك استوائية رائعة ... " !!

ماونت أوليف

****

أشار داريل إلى الاحتفال بمولد " الست دميانه " .. بمشـــاركة مواكـب دراويش الصوفية بأعلامهم وبيارقهم وطبولهم المصنوعة من جلد الجمـــال .. والرفاعية " وهم يسيرون فوق النار أو يأكلون العقارب " !... ويضيـف وهو بالغ التأثر " كان ماساً بالقلب أن تسمع المسلمين ينشدون أغاني دينيـة لدميانة ، القديسة المسيحية ، لقد سمعت أصواتهم تنشد كلمات .. ياســـت يابنت الوالي "!!

وفى صيف هادئ البال ... و " ماونت أوليف " الذي أرسل لمصـــــر " ملحقاً بالمندوب السامي البريطانى في وظيفة كتابية " لمدة عام .. لم يواجه – غير القليل – مما يثبط العزم في " مدينة تتشوق غاية التشوق للصداقـة ، سريعة الإحساس بأقل مظهر من مظاهر التأدب ، ذات خبرة وافرة فـــي ممارسة حياة البهجة والمتعة ، ورفرفت الشراع الملونة يوما بعد يوم وهى تتباطأ في المرفأ بين قلاع الصلب ، والأمواج البيضاء الساحرة تتوالى في فواصل محكمة فوق شطآن الصحراء التي حرقتـــها ، حتـــى البيـــاض ، الشموس الأفريقية ، فغدت كزجاج مهشم ، وسمع وهـــو جـــالس ، فـــي

الحديقة المتألقة باليراعات ، الهدير العميق لرفاصات سفن الخطوط التي تقصد الشرق وهى تبحر في المياه الأكثر عمقا خارج المرفأ ، متوجهة إلى الموانى التي تقع على الجانب الآخر من العالم . وفى الصحارى كانوا يستكشفون الواحات ذات السراب المائل للخضرة ، أو يقطعون المفاصل البرونزية لسلاسل الحجر الرملي المحيطة بالمدينة يتهادون فوق الجياد وقد حملت بالطعام والشراب لترطب وتهدئ راكبيها " !

لقد بدت الإسكندرية لماونت أوليف مخيماً صيفيا يشتهيه المرء تماما ، مكانا تأنس فيه كل عاطفة وكل محب غريب عنها بالمعنى اليوناني للكلمة والأوربيون الذين عايشوا الإسكندرية ثمة علاقة أبدية " عصب خفى " يربطهم بالمدينة ويجذبهم إليها أينما كانوا ... !

هؤلاء – أنفسهم – كانوا غرباء ومنفيين داخل مصر التي كانت تعيش تحت سطح أحلامهم المتلألئة ، تحيط بها الصحارى الساخنة ، وينتشر فيها كالمروحة إيمان موحش ينكر أية متعة دنيوية " مصر الألاعيب المازحة والمرارات ، الجمال واليأس ، الإسكندرية لاتزال أوربية – عاصمة أوربا الأسيوية ، إن كان لمثل هذا الشيء وجود . إنها لايمكن أن تكون كالقاهرة ، حيث تصب حياتها كلها في قالب مصري ، وحيث يتحدث العربية بإسهاب . هنا تهيمن الفرنسية والإيطالية واليونانية على المشهد كله . الجو المحيط هنا والسلوك الاجتماعي وكل شئ مختلف . إنه مصبوب في قالب أوربي ، حيث تعيش الإبل وأشجار النخيل وأهل البلد المتلفعون بالعباءات ، يعيشون فقط ، وعلى نحو ما ، كحاشية وإضاءة ملونة ، كخلفية قماشية لحياة مقسمة إلى أصولها المختلفة " !

وقد وجد " بورسواردن " وهو جالس في " قطار أورشليم السريع " يسير رزينا وسط الكثبان الرملية وبيارات البرتقال ، وجد نفسه يفكر في ظلمة أول الليل بالإسكندرية ...

" كانت تلك هي أفضل ساعات اليوم في الإسكندرية – الشوارع تتحول في بطء إلى اللون الأزرق المعدني بلون ورق الكربون ، إلا أنها لا تزال تبعث حرارة الشمس . لم تكن كل الأنوار قد أضيئت في المدينة ، والحزمات البنفسجية الكبيرة للعتمة تتحرك هنا وهناك ، تحيل معالم الأشياء إلى أشكال ضبابية ، تعيد طلاء خطوط الأبنية الحادة والبشر بالدخان . وتستيقظ المقاهي الناعسة على صوت المندولين الشاكى والذي يعلو من صرير إطارات السيارات الساخنة وهى تسير فوق شوارع رصفت بالقار والحجارة ، وقد ازدحمت الآن بالحياة " !

و " نسيم " ... الذي احب " جوستين " .. في حنان ، واستلام ، وغضب !.. فاستقل سيارته إلى موعده معها ، متجها إلى شارع سعد زغلول عبر خطوط الترام .. حيث كانت جوستين في انتظاره بالقاعة الكبيرة لفندق سيسيل " وقد ارتدت قفازها في يديها اللتين تطويان حافظة اليد وتحملق عبر النوافذ حيث يحبو البحر ويتمدد ، يتسلق ويهبط خلال ستار أشجار النخيل ، التي تخفق في صرير كأشرعة محلوله ، في ميدان المجلس البلدي " !

الإسكندرية ... أميرة وغانية !

****

وعلى وقع أقدام تدوي في الذاكرة ... ومشاهد وأحاسيس منسية تقفز من الجدران المشققة ، ومن مناضد المقاهي .. بينما " بلتازار " يسير في شوارع " العاصمة الصيفية " في ضوء شمس الربيع ، حتى ينتهي إلى " مقهى الأقطار " ... يتأمل ما حوله .. يستمع إلى " بقبقة " النرجيلات يتمعن الصمت الذي يعقب صيحات الباعة الجائلين وصوت قطع النرد ، تمر به نفس الأطياف " ثم تعود تمر في شارع النبى دانيال ، سيارات رجال البنوك الليموزين اللامعة تحمل شحناتها المنتقاة من السيدات المطليات إلى موائد البريدج ، الى المعبد اليهودي ، إلى قارئي الطالع ، إلى المقاهي الرشيقة "

ويحدث نفسه ... " الإسكندرية أميرة وغانية ، المدينة الملوكية ، إنها لن تتغير أبدا طالما استمرت الأجناس تموج هنا كالخمر في دن من الدنان ، طالما ظلت الشوارع والميادين تنسال ، تتدفق بتلك العواطف والمكائد المتضاربة ، بالرغبات العارمة والسكون المفاجئ ، حمراء خصبة بالحب البشرى المفروش بعظام المغتربين التي إبيضت !..

حتى الحرب ، وصلت والمدينة إلى اتفاق ، لقد أنعشت حقا تجارتها مع زمرات جنود بلا هدف ، يسيرون بهذا الجو المتجهم ليأس رابط الجأش ، والذي يمارس به الأنجلو ساكسون مسراتهم ، وكل نسائهم اللائي زالت عنهن كل جاذبية ، في زي يضفي عليهن جو الكواسر – كأنما في وسعهن أن يشربن دم الضحايا البريئة وهى لا تزال دافئة ، كانت المواخير قد فاضت وأطبقت ظافرة على حي من المدينة بكاملة ، يحيط بالميدان القديم، إن كانت الحرب قد جاءت بأي شئ ، فهو جو كرنفال نشوان مترنح ، حتى ضرب الميناء بالقنابل ليلا يمحوه النهار ، ينفض عن الأكتاف

كالكوابيس ، فلا شئ قد تغير تغيرا جوهريا ، لا يزال السماسرة على درج نادى محمد على يرتشفون الصحف والمركبات التي تجرها الخيول العجوزة ، لا تزال تقوم بجولاتها القصيرة الكسولة ، الكورنيش الأبيض لا يزال مزدحما بالناس الذين يسعون ، يحظون بضوء شمس الربيع الواهنة ، الشرفات تزدحم بالملابس التيلية المبتلة والفتيات يقرقرن ضحكا السكندريون مازالوا يتحركون داخل تصاوير حياتهم التي يتخيلونها بلون الأصواف الأرجوانية . أصوات الفتيات تنطلق أنغاما من الحي العربي ومن المعبد اليهودي ، في دندنة رنانة تقطعها خشخشة الصلاصل بصورة منتظمة . وفوق أرضية البورصة كانوا كحيوان هائل واحد يعاني الألم ، والذين يبدلون النقود يرتبون عملاتهم مثل الحلوى فوق طاولات كبيرة ذات خانات مربعة ، والباشوات بطرابيشهم القرمزية الأشبه بأصص الزهور في سيارات فارهة مثل أكله اللحوم " !

ثم يرسم داريل صورة قلمية لشتاء المدنية ... لا يمكن أن نراها سوى في الإسكندرية !...

" كان المطر يتساقط في ستائر ، كما يفعل في الغالب قبل فجر الإسكندرية ، يثير قشعريرة الهواء ، يغسل أوراق النخيل التي تطقطق متيبسة في حدائق البلدية ، يغسل الحواجز الحديدية للبنوك والأرصفة ، وتفوح الشوارع المتربة في المدينة العربية برائحة تشبه رائحة مقبرة حديثة الحفر ، وباعة الورد لابد قد أخرجوا ما لديهم من زهور حفاظا على نضارتها . إنني أتذكر نداءهم " القرنفل ، طيب الرائحة كأنفاس فتاة ! .. " وانسابت من الميناء روائح القار والأسماك والشباك المليئة عبر الشوارع المهجورة ، لتلتقي بتجمعات هواء الصحراء عديمة الرائحة ، والتي يمكن فيما بعد ، مع أول شعاع ضوء للشمس ، أن تدخل المدينة من الشرق ، تجفف واجهات بيوتها الرطبة .

ولا يستطيع داريل أن يتخلص من مجال جاذبية المدنية ... " كان الحـي يغط في الظلال البنفسجية ، والليل الهابط يتقدم ، سماء من قطيفة ترتجـف ، يقطعها أضواء آلاف اللمبات الكهربية شديدة التوهج ، تجثم فوق شـارع التتويج مثل قشرة مخملية ، تعلوها ، فقط ، أطراف المآذن المضيئة التـي تنهض فوق جذوعها الرشيقة غير المرئية ، تبدو تتدلى معلقة في السماء ، ترتعش قليلا في الغبشة كأنها توشك أن تمد قلانسها كالكوبرات . سـرت في تكاسل عبر تلك الشوارع استعيد ذكراها ثانية ، وأنهل إلـى الأبـد : ذكريات المدينة العربية " !!

العصر الذهبي للإسكندرية

لكل مدينة شخصيتها وزمانها ... ولمدينتنا " الإسكندرية " أزمنة وشخصيات ، إنها مدينة ذات " هوية خاصة " ... صنعت أزمنة ، وصنعت حضارة ، وفيها انصهرت ثقافات ، وبداخلها تفاعلت حضارات ... وبقيت الإسكندرية !!!

الإسكندرية ... مدينة تختلف .. لأنها خلبت ألباب كل من أتى إليها سواء لقضاء بضعة ليال ، أو الذين لم يغادروها قط !

وكل من سعى للكتابة عنها ، حاولوا أن تكون كتاباتهم شامخة ... تماماً مثل الإسكندرية ، وشواهد عزها القديم!

ومن هؤلاء ، البروفيسور " جون مارلو " ... صاحب كتاب " العصر الذهبي للإسكندرية " الذي صدر عام ١٩٧١ ، وجون مارلو تخصص في التاريخ السياسي للشرق الأوسط ، ومن مؤلفاته : " النواحي الأربعة لمصر " ... وكتابه الشهير " كرومر في مصر " كما كتب عن العلاقات المصرية البريطانية ، وقضية فلسطين ، والخليج الفارسي ، والقومية العربية وغيرها ... ويغطى كتاب مارلو تاريخ الإسكندرية منذ نشأتها حتى فتح العرب لمصر علم ٦٤١ م ، ويقول د. مرسى سعد الدين الذي ترجم لهذا الكتاب في دراسته القيمة "تحت سحر مصر " : إن الإسكندرية حتى القرن السابع الميلادي كانت أجمل وأعظم مدينة في العالم ، فقد كانت عاصمة لإمبراطورية مترامية الأطراف ، وحتى بعد أن إنتقل مركز الثقل السياسي إلى روما ، فقد كانت الإسكندرية متقدمة من النواحي الفكرية والثقافية وكانت لا تزال - البوابة - التي تبحر خلالها الثروات المادية والآراء الروحية وفنون الشرق جميعا .. وحتى عندما ظهرت - روما

الجديدة - على الجانب الآخر من البحر ، استمرت الإسكندرية في عظمتها الفكرية والحضارية .

ويقسم مارلو كتابه إلى فصول مختلفة بطريقة مبتكرة ، فنراه يخصص أربعة فصول بعناوين:" السعي وراء المعرفة " ، " السعي وراء الفن " ، "السعي وراء الحياة " ثم " السعي وراء الحب " بالإضافة إلى فصول أخرى تاريخية خالصة ، وقد اختار لفصل عن كليوباترا عنوانا طريفا هو " حبيبة ليس لها شبيه " ويبين الكاتب في الفصول الأربعة كيف ازدهرت في الإسكندرية الفنون بأنواعها مثل النحت والموسيقى والخطابة والفلسفة والشعر الملحمي والكوميديا والمأساة والرقص والموسيقى . لقد انتقلت حضارة الإغريق وعلومها إلى مدينة الإسكندرية ، حيث ظهرت المدارس الفلسفية المختلفة لأفلاطون وارسطووزينو واينكورس ، وفي متحف الإسكندرية ومكتبتها تم جمع أعمال الشاعر اليوناني الشهير "هوميروس" كما وضعت فيها قوانين النقد الأدبي ، كما شملت مدرسة للطب رأسها العالم المشهور "جالين" الذي ألف ١٥ كتابا عن الطب منها عن التشريح والأوعية والشرايين ، وكانت هناك مدرسة الرياضيات ومدرسة الفلك والطبيعة والميكانيكا ، وقد قام بعض علماء المتحف والمكتبة ، باختراع العديد من الآلات ومنها ساعة مائية تقيس الزمن عن طريق طرد منظم للمياه ، وطائر يغنى ميكانيكيا كما اخترعوا جهاز للأمن يصدر صوتا عاليا إذا فتح الباب ، كما اخترعوا ما يرى مارلو انه تدفئة مركزية وذلك عن طريق انسياب تيار ساخن خلال ماسورة تمر إلى ما أطلق عليه " الحمام الروماني " .

أما في جانب الفن فقد اشتهرت الإسكندرية بأعمال النحت المستورة والعمارة والموسيقى والرقص ، ويقول مارلو أن شعب الإسكندرية " شعب حظ " يحب المرح والفن بكل نواحيه ، وقد ظهرت في ذلك الوقت في العصر البطلسي اتجاهات جديدة سواء في الشعر أو في الفنون التشكيلية " تيارات تذكرني

بالمفاهيم الحديثة للفنون - كان الاتجاه هو معالجة الحياة اليومية العادية سـواء في الأدب وخاصة الشعر أو في الفن خاصة النحت " ونجد على حد قول مارك ، أن التماثيل كانت تبين رجالاً هرمين وأطفالا وفلاحين وصيادي سمك وباعـة متجولين وفى الأشياء الصعبة البعيدة كل البعد عن البلاط وشخصياته ، وقـد انعكست نفس الروح في الشعر وهنا يقدم مارلو فقرة كتبها أحد النقاد في الفـن البطلسى :

" نحن ندين لشعراء الإسكندرية بالأشعار المستمدة من أحداث كل يوم ، مـن الأفكار والأعمال والمعاناة لأفراد الشعب العاديين ، إن الشعر خاصة الشـعر الروماني نراه في أبيات الرثاء أو أشعار الحكم والسخريات ، كما نـراه فـي الملاحم ولكن شعراء هذا العصر غيروا من شكلها الكلاسيكي أعطوها شـكلا جديدا ، لقد أصبح الحب هو الموضوع الأساسي للأدب الخيـالي كمـا كـان الموضوع الكبير للملاحم الشعرية وكذلك للأشعار القصيرة ، لقد عرف شعراء الإسكندرية أن الشعر يمكن صنعه من أبسط الأشياء العادية وأحداث كل يـوم ومن ثم كانت أشعارهم نصف الأشخاص العاديين وليس الأبطال ، لقد حطمـوا التقاليد الكلاسيكية القديمة سواء الوزن أو القافية وتركوا لمن جـاءوا بعدهـم حرية التجريب وفوق هذا كله استطاعوا أن يجعلوا من الشعر فناً قائماً بذاتـه دون النظر إلى دوره السياسي والاجتماعي والديني ، كما أن الشعر بالنسـبة إليهم لم يكن مجرد وحي والهام وانما فن وحرفة وإبداعـا تلقـائي للـروح الإنسانية ، أليس هذا هو ما فعله الشعراء العرب المحدثون سواء في مصـر أو العراق أو سوريا أو لبنان " ...

ويورد مارلو نماذج من أشعار الحكمة وأشعار الحب والغزل ...

كما أورد أيضا نماذج لحوارات طريفة بين الحبيبين ومن هذه النماذج يؤكد أن أهل الإسكندرية كانوا يسعون دائما إلى الحب والعشق ويحيون حياة ناعمة ...

وحين يتحدث الكاتب عن حياة سكان الإسكندرية ، نراه يعطى تفصيلات دقيقة للملابس والقصور والبيوت العادية وأنواع الأحصنة والحفلات التي كانت تقام وعن حبهم للزهور فيقول " عرفت الإسكندرية بزهورها المختلفة فقد كان أهلها من هواة فلاحة الحدائق ولذلك تجد فيها زهوراً لاتعثر عليها في أى بلد آخر .. ويتحدث الكاتب عن " الجري وراء الحب " فيشرح سهولة الزواج وسهولة الطلاق والزواج واحتفاظ معظم الأزواج بعشيقات مما دعا الزوجات إلى اكتساب نوع من الاستقلالية في حياتهن ، فكون مجموعات منهن يعشن حياة خاصة بهن ، وتصف إحدى الزوجات إحدى حفلاتهن الخاصة حيث " قضينا وقتا رائعا نغنى ونرقص ونشرب حتى صياح الديكة "وكانت هناك طبقة من النساء للترويح على الرجال تشبه إلى حد كبير الجيشا اليابانية وكانت تلك النساء على درجة عالية من العلم والثقافة بحيث يقدمن احتياجات الذهن بقدر ما يقدمن احتياجات الجسد " !

ولم تكن تلك النساء مشاعا لأي رجل بل أن المرأة منهن كانت تختار رجلها وكانت تعلن عن نفسها عن طريق كتابة اسمها وعنوانها على مسلة أو شاهد مقبرة، مستعملة قلم حواجب وتضيف إليه اسم الرجل الذي تبغيه وحين يمر الرجل على الإعلان يتم الاتصال ثم التلاقي وهذا يذكرني بإعلانات الزواج عندنا وإعلانات التلاقي التي نراها في الدول الغربية ويقول مارلو انه على الرغم من الإباحية التي كانت موجودة والحب الحر، فإن عدد المولودين من الأطفال كان قليلاً مما يرجع أن أهل الإسكندرية عرفوا أنواعا مختلفة من وسائل منع الحمل !

ويخصص الكاتب فصلا طويلا عن كليوباترا وتاريخها ، وكيف تولت عرش مصر وعلاقاتها بقيصر ومارك انتونى وهذه كلها معلومات معروفة وان كان يكتبها بأسلوب روائي جذاب ، ويعتمد الكاتب في وصف كليوباترا على المؤرخ اليوناني المعروف " بلوتارك " الذي يقول إن كليوباترا كانت تتقن

لغات عديدة بما في ذلك اللغة المصرية التي لم يحاول أجدادها تعلمها ولكنها ورثت عنهم المقدرة والقسوة والجرأة والطموح وهنا يورد فقرة من بلوتارك في وصف الملكة المصرية فيقول " إن جمالها لم يكن في حد ذاته على روعة لا تجدها في امرأة أخرى أو أن من يراها لابد أن يقع في غرامها ولكن مما لاشك فيه أن مجرد التواجد معها تجد فيه إغراء لا يمكن مقاومته .. إن جاذبية شخصيتها بالإضافة إلى فتنة حديثها الأخاذ وما تضفي عليه من وجودها شئ يأخذ بالألباب ، لقد كانت متعة حقا مجرد الاستماع إلى صوتها وكأنه آلة موسيقية ذات أوتار عديدة ، ونراها تتنقل بك من لغة إلى لغة أخرى وعلى الرغم من حب أهل الإسكندرية للحظ والاستمتاع فإنهم أظهروا وقت الشدة وطنية رائعة وحين هاجم الرومان مدينتهم كانت ذلك أعظم اختبار لأهل الإسكندرية ، لقد كانت المناسبة الوحيدة التي أظهروا فيها استعدادهم للقتال من أجل المدينة ، ويعطى الكاتب وصفا تفصيليا للأحداث التي مرت بالإسكندرية منذ دخول قيصر إلى الإسكندرية والرحلة التي نظمتها كليوباترا له على ظهر سفينة يسميها بلوتارك " قصراً عائماً " ووصلوا إلى الشلال الأول ، ثم يصف فترة إقامتها في روما وكانت سنها ٢١ عاما حين وصلت إليها وهناك استطاعت أن تسحر أهل روما كما سحرت إمبراطورهم وفى روما وضع قيصر صورتها ، ويقول البعض إنها كانت لوحة مرسومة أو تمثالا ممن ذهب في معبد ليفنوى الجديد ، وتعود كليوباترا إلى مصر بعد إغتيال قيصر ، تعود لتحكم البلاد وتتعرض لغزوات أخرى ومعارك مع الجيوش الرومانية ويخصص مارلو جزءا كبيرا لعلاقتها بمارك انتونى وبين أن كل ما فعلته كليوباترا كان من أجل مصر ويورد الكاتب وصف بلوتارك لمقابلة كليوباترا لمارك انتونى فيقول لقد وصلت كليوباترا على مركب لها مقدمة ذهبية وقلاع أرجوانية اللون ، وكانت المجاديف من فضة وهى تضرب في الماء إيقاع موسيقى يعزفه لاعبو الفلوت والهارب والزمار ، وكانت تتمدد على أريكة

مغطاة بالذهب وهى ترتدى رداء مثل رداء فينوس (ربة الجمال) كما نراهـــا في اللوحات الفنية واصطفت على جانبيها فتية صغار على درجة من الجمـــال يرتدون مثل ما يرتدى كيوبيد في اللوحات الفنية وكانت وصيفاتـــها يرتديـن ملابس مثل جنيات البحر وهن يحولن الدفة أو ينشرن الأشرعة وكانت العطور الخلابة يصل أريجها إلى شاطئ النهر وسرت الشائعة بين الجماهير بأن الإلهة فينوس جاءت لتحتفل مع الإله باكوس وحين وصلت أرسل مارك انتونى لـــها دعوة للعشاء ولكنها وجدت من الأوفق أن يحضر هو إليها ، ولكـــي يظـــهر انتونى حسن نياته قبل دعوتها .

ولا يخلو وصف بلوتارك من طرائف مثلا حيـــن ذهـــب انتونـــى مـــع كليوباترا لصيد الأسماك لم يسعفه الحظ فلم تجذب سنارته أية سمكة وعندئـــذ أمر أحد اتباعه بأن يغطس في المياه ويعلق أسماكا كانت موجودة في ســـنارة قائدة وبدأ انتونى يخرج سمكة بعد أخرى ولاحظت كليوباترا ما حدث فـأمرت أحد أتباعها بتعليق سمكة مملحة في سنارة انتونى وحين جذب القائد ســنارته وشاهد الجميع السمكة المملحة ضجوا بالضحك وقالت كليوباترا له :

"أيها الجنرال اترك صيد السمك لنا نحن الملوك... إن لعبتك هي المـــدن والأقاليم والمماليك "!

وكانت تلك بداية قصة حب كتب عنها شعراء العالم ويصف مـــارلو نهايـــة انتونى فى كلمات بلوتارك : "طلب انتونى من خدمة أن يسكبوا له نبيذا كثـــيرا وقال انهم في الغد سيصبونه لسيد أخر " وقد بكـــى أصدقـــاؤه الذيـــن كـــانوا يحيطون به حين سمعوه يتحدث بهذه الطريقة وحين اخبرهم انه لن يقودهم إلى معركة أخرى يجد فيها موتا شريفا وليس سلامة وانتصارا ، ونرى في ختـــام الفصل كيف رفضت كليوباترا إغراء القائد اكتامينوس ووعده لها بان يترك لها حكم مصر إذا سلمت انتونى أو قتلته وفضلت الموت بالطريقة المعروفة فـــي

التاريخ وينهى مارلو هذا الفصل قائلا كانت كليوباترا آخر ملكة من البطالسة تحكم مملكة مستقلة ، إذا منذ تلك اللحظة أصبحت مصر تابعة لورما .

وبعد أن يعطى المؤلف وصفا لدخول المسيحية إلى ارض مصر عن طريق سانت مارك وكيف أصبحت الإسكندرية مركز انتشارها في أفريقيا و المناطق المحيطة، يصل إلى وصول عمرو ابن العاص إلى مصر عام ٦٤١م على رأس الجيش العربي ، وكيف كان ذلك التاريخ هو بدء افول الإسكندرية ويعرض الكاتب شروط معاهدة السلام التي وقعها عمرو بن العاص في نوفمبر ٦٤١م مع الحاكم المسيحي سايروس بعد أن سقطت له البلاد وكان سايروس قد عاد من القسطنطينية ومعه شروط معاهدة السلام المقترحة ووافق عمرو على الشروط وتم التوقيع عليها .

ويرى المؤلف أن تلك الشروط كانت كريمة لجيش هزم وقد تم التصديق على المعاهدة في القسطنطينية في آخر نوفمبر من ذلك العام ويقول مارلو في نهاية الكتاب :

وفى بدء القرن التاسع عشر فتحت مصر نوافذها مرة أخرى للغرب ، بسبب غزو نابليون لها ، ومرة أخرى ارتبطت الإسكندرية بنهر النيل عن طريق قناة ملاحة، لتصبح الميناء الرئيس لمصر ، وبسبب الأثر العالمي للقطن أصبحت مركزا دوليا له ثقافة عالمية ، ونتيجة لذلك عاد الاهتمام بالإسكندرية مرة أخرى وفى أوائل القرن العشرين أنتجت الإسكندرية الشاعر اليوناني كافافى ، الذى استطاعت أشعاره أن تعيد بطريقة فريدة روح العصر الذهبي للإسكندرية !

" استعادة الإسكندرية "

في هذه الدراسة التي أعدها المؤرخ " لوك بار باليسكو " بمركز الدراسات التاريخية المعاصر للبحر المتوسط ، يقدم لنا صورة مفعمة بالتفاعلات و الأحداث و الشخصيات ، من خلال بحثه في اثنتين من إبداعات روائيين جاوزت شهرتهما الآفاق ، ينتميان إلي مظهرين ثقافيين و عصرين مختلفين : داريل و نجيب محفوظ ٠٠٠ وتكوين الروايتين مرتبط بالمكان السكندري ٠٠٠ الممتدة حدوده إلي الخيال ، و الزمان السكندري المتغير ، و الطبيعة الهادئة أو العاصفة للبحر ، و مؤثرات هذه العوامل في المجتمع السكندري : عالمية الثقافة و المشاعر المشتركة و أسلوب التفكير الاجتماعي الناتج عن اختلاط الهويات وتباين الأهواء ، فكان اهتمامهما مركزاً على الشخصيات - التي ما كان لها أن تحيا إلا في الإسكندرية - فالأحداث التي صنعوها شكلتها المدينة ٠٠٠ التي عكست نفسها في أدوار مختلفة و شخصيات مختلفة ٠٠٠ كتب باربليسكو :

الحديث عن الإسكندرية ، يعني الحديث عمن تحدثوا عنها ٠ وبتوضيح أكثر ، هو محاولة - لرأب الصدع - الذي يفصل بين الحقيقة المؤسسة للمدينة ، وبين صورتها الأسطورية و تجربتها الخيالية التي تعيشها ٠

وأفضل الكتابات - من وجهة النظر هذه - هي التي ستعيد هؤلاء السكندريين إلي مدينتهم الحقيقية !

وهذا ما سنحاول أن نفعله ، و نلتزم بأن نسترجع و نبحث اثنتين من هذه الكتابات ، و يضاعف أهميتهما أنهما ينتميان إلي مظهرين ثقافيين ، و عصرين مختلفين ، أحدهما : لورنس داريل - LAWRENCE DURRELL " الأوربي " السكندري " في الثلاثينيات من هذا القرن ، و الآخر " لنجيب محفوظ " الأديب المصري ، في الستينيات ، وروايته السكندرية القصيرة " ميرامار " ٠

( )

ومـــــن " ديريل " حتى " محفوظ " فكل شيء يمضي بصورة طبيعية ٠٠ المدينة " تتمصر " و لكن هذا الانتقال الخيالي التاريخي لمدينة بأكملها ، كان من نتيجته أنها تجردت من أبعادها الأسطورية ، و أنها اكتسبت حقيقة جديدة ، وهنا على وجه التحديد تمثّل قصة نجيب محفوظ أهمية خاصة : فهو يعرض للمدينة ٠٠ صورة أعيد بناؤها بتكاليف جديدة ، بعد اثبات و تجميع مكاسب و خسائر الماضي ٠٠ لامراء أن فرق الأسلوب الذي يدركه الحس في الحال عند القراءة بين القصتين ، قد يرجع قبل كل شيء للفرق الموجود في الزمن : رباعية لورانس داريل تمت عام ١٩٦٠ وتسرد أحداثاً محسوبة أنها انقضت ، أساساً قبل الحرب العالمية الثانية ، وقصة محفوظ ، الأول وصل متأخراً ، و تقريباً ، الوحيد الذي تناول الإسكندرية كديكور ، في كل إنتاجه الغزير و الرومانسي ، وروايته ظهرت عام ١٩٦٦ ، و تحكي أحداثاً ، معروضة ضمنياً كأنها معاصرة ، أما مدينة "ميرامار " فهي مدينة ناصرية ، مصرية ، مغلقة على نفسها لا تتضمن أية ظواهر مشتركة مع الرباعية ٠

ولكـــن الفارق في زمن القصة ، و أيضاً تباين الأسلوب ، لا يكفيان لتقييم هــذا التغييــــر في الجو أو الوسط الذي اختبره القاريء و تحقق منه ، عندما ينتقل من الرواية الأولى إلي الرواية الثانية ٠

مهمـــا كان العصر الذي يرجع إليه و مهما كان أسلوب اللغة نفسها ، فذلك بعض العلاقة مع الزمن السكندري ـ الذي يتغير من " داريل " حتى محفوظ : و إذا كان مؤرخ "ميرامار " خلف الأربعة أقنعة التي وضعت على الوجه بالتتابع ، يحكي لنا أحداثاً معاصرة ، بصفة مطلقة ، لعملية التأريخ نفسها ، إذن فالأمر يتعلق حينئذ بأن القصة تندرج تحت نوع من أنواع " المذكرات " ٠٠ أو " أدب الرسائل " ٠٠ تنقصها ببساطة ، الحبكة ، التي يختص بها هذا النوع من القصص ، الحبكة التقليدية التي تجعلها ممكنة الحدوث : فالشخصيات في " ميرامار " لم يذكروا إطلاقاً أنهم يكتبون " يوميات " أو رسائل ، ولكن

الطابع الغالب على الكتابة ، يستبعد كلية افتراض أي مونولوج داخلي وسريع في نهاية الفصل المخصص لسرحان البحيري ـ أما مؤرخ " الرباعية " فهو يسرد أحداثاً ، شغلت زمناً طويلاً من قبل و تصرفات الشخصيات ، كذلك تختلط عليهم دوافعهم أو يجدوا أنفسهم مسنداً إليهم أحداثاً متضاربة مع كل ما يتعلق بذاكرة المؤرخ ٠٠ فهناك مجال عقلي ، صاغته طريقة السرد نفسها ، بين القصة و وقت السرد ، و هو أيضاً زمن القراءة ، حفر زمني و عمق عقلي : يغيبان تماماً عن " ميرامار " بما أن الكل ـ أحداث القصة ، و السرد والقراءة ـ مختلط فيها في نوع من الفورية أو المباشرة الساذجة ٠

وفـــــي تعبير آخر : فما يقدمه عبارة عن تقرير زمني أقل منه كتقرير عن المكـــان : المكان السكندري !

وحتـــــى استخدام الذاكرة ، و الذكرى المختلطة ، عند " داريل " تعطي للمدينة حداً ظاهراً ، و يعرض لها بصورة مهتزة ، حيث تمتد حدودها إلي الخيال ، وبنفس الطريقة ، نجد أن الشكل " الفوري " لسير القصة عند محفوظ ، أضفى على نفس المدينة ، قوة وحقيقة جديدتين ، إذا كان جوستين " ونسيم " و القصاص نفسه و " دارلي " كأنهم يعيشون في مدينة غير حقيقية ، حيث يشك البعض فيها ، و الوقت يمضي ، و كأنها كانت موجودة خارج أحلامهم ، و يندهش القصاص من أن يجدها ، في الحقيقة ، و في ذروة الحرب ، بعد أن ابتعد عنها لعدة سنوات ، أشخاص " ميرامار " على العكس ، و طئوا الأرصفة ، يتأملون بحراً ، و يترددون على مقاهي ، مزو ة بوجود صريح ولم تكن أبداً مشكلة ، فالتناقض الظاهري ، في المعلومات الواقعية و عناصر الديكور كانت قليلة جداً في القصة المصرية عنهـــــا في الرباعية " Tetralogie " إذن فالأمر يتعلق بالمكان : مكان عميق " محفور " و من هنا ، غير واقعي ، عند " داريل " المكان " ذو وضع أفقي " و عند محفوظ شبه طبيعي ٠٠ هذه الرؤية المتباينة عن المكان لمدينة واحدة ، لتدل في النهاية على أصالة ، تتجاوز التقنية الأدبية ٠٠ و نظرة مختلفة تنصب على هذه المدينة ، لأثنين مـــــن

( )

الروائيين ، من جنسيتين مختلفتين ، في كلمة واحدة : مصرية نجيب محفوظ وأوروبية "داريل " ، أدوا إلي البناء الخيالي ، بطريقة قاطعة للمكان السكندري ، هذا ما نعتقد أننا استطعنـــا أن نشير إليه • رمزية التعميق للمكان الحساس عند " داريل " : إعادة القاريء ـ بتهكم ـ إلي صفحة بيضاء بواسطة علامة موجودة في نهاية " جوستين " دعوة القاريء إلي تأمل الفراغ الموجود في الصفحة البيضاء ، و يستطيع كما يحلو له ، أن يشعر بهذا التأمل كنقطة إطالة ، تطيل من القصة التي أنجزها لتوه ، أو مثل صورة أعماق ـ الوهم الذي منحه القصاص إلي المدينة ، و في " ميرامار " لا شيء مماثل ، قصة موجزة ، وبنيت بعبقرية لا تعرض للخطر و هم الحقيقة •

تاريــــخ :-

مـــــن السهل أن نقارن بين القصتين على صعيد علاقتهما بالتاريخ ـ تاريخ المدينة ـ و لا يفوتنا أن نلاحظ منذ البداية أنه إذا كانت " الرباعية " التي كتبها " داريل " تفيض بالتلميحات التاريخية ، بينما قصة محفوظ تبدو على العكس ، تسبح في جو من الحاضر الصافي ، و الأفضل ما نجده في " ميرامار " للإجابة على النداء المتواصل لداريل (انطونيو ، كليوباترا •• طبيعياً ، و لكن أيضاً بلوتان ، هيباتي) تلك القصة التلميحية المقسمة التي صاغها في زمن البطولات للصراع الوفدي الصحفي العجوز " عامر وجدي" استبدل ماضياً اسطورياً جماعياً ، بماضي شخصي وثيق الصلة بالتاريخ الحديث •• أضف إلي ذلك أن ماضي النضال الوطني ، يهم الإسكندرية بصفة مباشرة •• !

فـــــي بالثازار Balthazar مقارنة جرت بين البناء " المنضد ـ متعدد الطبقات " للمدينة ، ثمرة التاريخ التي قدمت " طبقات " متنوعة من السكان ، والإعداد المتاح لقصة (بدون شك ، ستكون تلك القصة التي أعطيت لنا لقرائتها) في "لوحات لحظية " أو في " أطراس " (رق ممسوح و مكتوب عليه ثانياً) بعض الأحداث سيجد نفسه هكذا معرضاً إلي العديد من المراجعات و التعديلات حتى يتسنى للقصة أن تتقدم !

( )

وعـــدم وجود " اللوحات اللحظية " في بناء قصة ميرامار (البناء الذي يبدو مهيأ نسبياً إلي الشكل التقليدي للقصة العربية ، و لم يبق له إلا أن يحافظ على المعنى في مختلف أشكاله) بدون شك يوائم بين غياب التاريخ ، و بين وجود المدينة بحداثتها واشتراكيتها ٠٠ كمدينة وضعت في صورة بريئة !

وهكـــذا فتكوين الروايتين يرتبط بالمكان الذي نرفض فيه أو نقبل التاريخ ٠٠ ! الصورة التي رسمتها (لهذه الأحداث) وقتية تشبه تلك التي نرسمها لحضارة إندثرت ، بمساعدة بعض القطع من الأواني الفخارية ، أو لوحة منقوشة أو ببعض عظام الموتى ٠٠ وسواء كان عمل الروائي في التيترالوجي يشبه عمل عالم الآثار باعترافه الشخصي و سواء كانت قصة ميرامار تشبه المذكرات أو اليوميات مباشرة ، فان مادة البناء قابلة لإعادة تشكيلها مستقبلاً و ليس إعادة بناءها هي نفسها ٠٠

أقـــــل قدماً من التاريخ ، و أكثر رسوخاً من التاريخ ، الذكريات ٠٠ و إذا وازينا بين بداية " كليا – CLEA " ومثيلتها في ميرامار تعرف الفرق الذي يميز الروايتين ٠٠ أشكال العودة إلي ماضي الإسكندرية ، بدون شك – هل قدمنا إليها التحية المماثلة : عاصمة الذكريات أو قلب الذكريات ، و لكن الذكريات عند روائي الرباعية تحملها نحو أشباح وأوهام نحو " عالم الجحيم – Underworld " حيث يتساوي الأحياء والأموات ، باختصار ، الذكريات أسطورية ، بينما الذكريات عند نجيب محفوظ ، تجعل المشاعر العاطفية للشباب تتوق إلي الماضي : و هنا أيضاً ، رفض التاريخ يؤدي إلي تغيير الإحساس بالنسبة للماضي !

ونلاحـــظ أيضاً أن هذا التباين في معاملة الماضي يعتمد على تشابه شكلي في وضع كل من الروائيين بالنسبة إلي قصته : مثل الـ " أنا " في " CLEA " توصف بأنها حاشية خطاب لم ينته أو لم يرسل بالبريد " عامر وجدي " في " ميرامار " اختار أن يكتب التعليق في نهاية القصة ، و أن يعطيها خاتمتها ، خاتمة كانت معلقة – بعد أن افتتحتها ٠٠

( )

وقـــد قام كل من الروائيين بعمل الأفضل : معانقة قصتيهما دون أن يتسببا في خنقهما و أن يحصلا بذلك على أكثر من ماض ٠٠ و على أزمنة من أنواع متباينة ٠٠ !

أدوار :-

فيمـــا يتعلق بمجموعة التغيرات و التنقلات التي تقدم تحت اسم آخر أو صورة أخـرى ، شخصية إحدى القصص من الرباعية إلي ميرامار سوف نهتم بأن نبين الفكر المشترك و المؤثرات الخارجية لبعض الشخصيات ، و ذلك حتى نوضح الاختلاف العميق للمكان الذي تطورت في أحضانه ٠

الــدور الرئيسي و الرمزي لـ " جوستين " وجد مناظراً له في " ميرامار " عند "درية " بحيث أن كل منهن مثل الأخرى ، تضطلع بعمل رومانسي متكامل لدور الخائنة : وبالمقابل دور ، مساعد الخائن و يقوم به القصاص نفسه ، في " جوستين " شخصية (دارلي - DARLEY) يقابله " منصور باهي " في " ميرامار " في الجزء الذي يحمل اسمه في القصة : أحدهما مثل الآخر ، يعتبرا خائنين للصداقة ، وفي الوقت ذاته خائنين للعلاقة الزوجية !

ويـذهب التشبيه إلي أبعد من ذلك ، إذا حاولنا بنجاح - أن نطبق على الثنائي منصور ودريه التعريف الذي أعطته جوستين لنفسها و إلي عشيقها : " نحن خونة بالطبيعـة ، نحن كالأموات ، و نعيش هذه الحياة على حد نصل ٠٠ " !

لا شـــك أن الحزن ، و هموم الحياة التي تشغل " منصور باهي " و التي ليس لها تفسير ، يمكن أن يكون مصدرها شعور بالذنب ، شعور عضال بالخيانة ، و بالتناقض مع حيوية حسني علام مثلاً ، الاشمئزاز من كل شيء حتى من نفسه – يسيطر على منصور والتمسك بنوع من الانطواء على نفسه والعزوف ، كل ذلك يشبه الموت البطيء ٠٠ !

( )

ولكـــن ما نراه أيضاً ، هو تتبع أنباء هذه الخيانة ، و التي تختلف الأرض التي تمارس عليها اختلافا تاماً ٠

فـــي الواقع خيانة " جوستين " و " دارلي " جعلتهما يشاركان ، على مستوى آخـر ، في روح التآمر ، و من هنا أيضاً ، دون أن يعيّا ذلك ، في نوع من التآمر السياسي ضد الإنجليز ، من خلال القصة ، الإعداد لخيانة أخرى ذات نتائج أكثر اتساعاً ٠٠ أما خيانة " منصور باهي " – على العكس – معفاة من كل إطالة أو امتداد غامض ، لا تمارس إلا من ناحية صديق مسجون سياسي ، فقد صورت نوع من عدم القدرة على الحركة ، ونوع من التقهقر أمام المخاطرة السياسية : اتجاه نحو النسيان ، و كان من نتيجتها رفض السعادة (رفض بات لاقتراح درية) و عدم قدرة (العجز عن القيام بعمل شبه شعائري للتطهر كان قد اقترحه) في إسكندرية نفتقر إلي سند دولي ، خيانة منصور ، بعيدة عن أن تنشط حدثاً اجتماعياً ، و تقوده حتى أعماق يأس شخصي ، ويرد إلي أبعاد مرض فردي ٠

وهنـــاك وجه آخر لـ " جوستين " يمكن أن يكون له مثيل في " ميرامار " : زهـــرة ، و لكن فقط في حدود أن إحداهما مثل الأخرى ، تعاني من نوع من البلادة ، وعدم القدرة على الحب !

فكـــل منهما تتمتع بقدر وافر من الجمال ، مما جعلهما هدفاً لرغبات الكثيرين ، وكل منهما تقوم – دون وعي – بعمل محوري ، بعمل محرك لا يتأثر بمجموع القصة ٠

ولكـــن إذا كان برود " جوستين " الواضح ، كان موضوع تفسيرات كثيرة من نوع التحليل النفسي ، فبرود " زهرة " أكثر غموضاً ، وأقل وضوحاً ٠٠ وسيظل نوعاً من الأسرار الخفية !

( )

ومـــــع ذلك ، فالاصل ، فيما يخصنا ، أن الخط التفسيري في حالة " جوستين " يؤدي بنا إلي عقدة قديمة ، و جريمة اغتصاب قام بها أحد الأقارب ، و في حالة زهرة نفس العجز عن أن تحب – Incapacité à aimer " حيث وجدت نفسها ضمنياً ، تواجه تهديدات بالزواج بالإكراه ، و أن البطلة تتجنبه بهروبها من القرية !

إذن فالإسكندرية أصبحت في هذه الحالة ملاذاً للحرية (النسبية) ، مكان المدينة الحيادي حيث جربت بسعادة غير متساوية ، و لكن ليس دون مخاطرة : الحكم الذاتي لشابة مصرية تتخلص من الضغوط القروية بصعوبة : كذلك مدينة " داريل " آخر مرحلة لجولة جوستين الأوروبية ، ومسرح مقدم إلي حيازتها المزدوجة أو الثلاثية ، تبدو خطيرة ولذيــذة .. " منحرفة " هكذا نفس المدينة التي يراها " محفوظ " ، تقدم بالتأكيد للشباب المصري ، الفرصة المناسبة لتطوير – دون تنازل عن المشاعر و الأحاسيس – الوسائل لتحرر اجتماعي (بدون شك خيالياً أكثر منه واقعياً ، و الغموض الذي يحيط بالقاريء فيما يتعلق بمستقبل " زهرة " جاء ليلطف رؤية تفاؤلية جداً للأشياء) .. !

ونـلاحـظ أيضاً أن تعليق زوج جوستين عن سلوكها ، داخل قصة موجودة في قلب القصة الأصلية ، نجدها في " ميرامار " بالعناية و العطف الذي أبداه الوفدي القديم " عامر وجدي " تجاه الفلاحة " زهرة " ترمز إلي أجيال جديدة : هذه العناية تصحبنا إلي خط تفسيري أكثر اجتماعية عن تلك ، حيث يقودنا اهتمام و فضول " الأرناؤوطي " !

والحـــق يقال ، وجه زهرة ، قد يكون من السهل الإشارة إليه ، بأنه هو مركز الجاذبية في القصة ، فالقصة بدأت بظهورها ، وانتهت عند مغادرتها للبنسيون ، ويمكن لرمزية الأسم المساعد ، أن تطابق أقنومة " أفروديت " التي نراها عند **داريل** عندما ظهرت ترتسم خلف " ميليسا " أو " جوستين " .. و لكنه مضيء ، في هذا المكان السكندري المحدد و الحديث حيث " ميرامار " موجودة ، كالبطلة التي تجردت من كل هالة أسطورية ، و أصبحت فقط فلاحة طموحة و متصلبة الرأي .. !

المنطقة الخلفيــــة :-

نـلاحــظ دائماً ، و خاصـة فـي " الرباعية " الإسكندرية مدينة أقل منها ميناء ، جزءً من قـارة أفريقيا ، أقل منـها جزء من البحـر الأبيض المتوسـط ، هذه الصـورة التـي ترجع تاريخياً إلـي " محمد علي " و رغبته فـي أن يجعل من هذه المدينة ترسانة وميناءً في آن واحد حيث تخرج منها السفن الحربية التابعة لمصر الحديثة • و كـان يريد أن يجعل من الإسكندرية مكان منفرد يرتبط بمنطقته الخلفية الطبيعية ، الصحراء أولاً ، ثم الدلتا ، و كل القطر المصري و سنرى عند داريل، أن هذه المنطقة الخلفية مع أنها معينه ، و لها اسمها، ظلت مـع ذلك جوهرياً منفصلة عن المدينة البحرية تماماً ، بينما عند محفوظ نفس البلدة الخلفية ، و تكـاد تكـون مسـماة ، وتمـارس علـى المدينـة جاذبيـة أكبـر ، تـربطها بأصـولها الداخليــة •

إلـي مـــاذا تسند الإسكندرية ظهرها ؟ تستند إلـي بحيرة مريوط – باليونانية يقال لهـــا " ماريوتـيس " فـي " الـرباعية " و هـي الصـحراء أيضـاً ، و بعيداً جداً واحة سيوة حيث المؤسس الذي وهب أسمه إلـي المدينة •• واضعاً على رأسه قرون آمون و أيضاً بطريقة أكثر إصراراً و كاردينالية عند داريل !

العـــــزب التابعة لعائلة " هوسناني " و مزرعة " كرم أبو جيرج " تطلق على مكان مصـري حقيقـي ، ظلـت لــ " نــاروز " و مـلاذ وقتـي لــ " نسيـم " : ولكـن عندما نقـرأ فـي « ماونت اوليف-Mountolive » أسـطورة " السـواقي " التـي قصـها " نـاروز " وفسـرها " نسـيم " تطـالعنا كـل عناصـرها الطبوغـرافية و التاريخـية فـي بضـعة سـطور (السـواقي ، مظاهـر الـريف ، اليونانـيون ، قـرون آمـون ثـم سـيوة ، و أخيراً الإسـكندر) ونلاحظ أن هذا المكان لخلفية المدينة تميزه عناصرها ، مكان تم غزوه و التغلغل فيه ، منطقة خلفية مكتشفة إعتباراً من الساحل الذي ترتبط به ، وليس بالأصل •

وعلـــى العكس في " ميرامار " حيث لا يظهر أي من هذه الأماكن – وليس كهدف من أهداف سباقاته الجنونية ، التي يجد فيها " حسني علام " سعادة كبيرة و هو جالس إلي عجلة قيادة سيارته : كل أحياء المدينة كانت مسماه ، و لكن لا يكترث بشيء مما يحيط به – المنطقة الخلفية موجودة وجوداً حقيقياً ، لا يضطرنا إلي تحديدها ، و هنا يتعلق الأمر حقاً بخلفية مدينة من الأصل ، بمعنى الإصطلاح المحدد و الواضح : فبطل القصة النشيط ، يحمل في اسمه " سرحان البحيري " ما يدل على أصله ، البحيرة ، و هي المنطقة التي جاءت منها " زهرة " و التي يرى فيها « سرحان البحيري " و يحس بالربيع وروائحه ، و محصول القطن ، و سبب لقائهم ، و في شبابه أيضاً حيث التناقض ، بكل تأكيد ، مدينة – قرية ، و لكن ذات إتجاه محوري ، نجد : السذاجة ، النقاء ، الشباب ، هموم، طموحات ، و ليس مثلما كانت الحالة عند " داريل " حسب محوره ، شرعية ، عالمية المواطن و الفكر ، لأن المدينة عند محفوظ لم تكن عالمية المواطنة ، و مسألة "الشرعية " لم تكن مطروحة ٠٠ !

ونلاحـــظ أيضاً أن " حسني علام " يقوم بدور ابن عائلة من كبار ملاك العقارات ، وحيث منصور باهي أصلاً من العاصمة و أنه يذهب إليها دائماً ، دون أن نشعر مطلقاً بأنه يمضي إلي عالم آخر ، و تلك حالة أبطال " داريل " **و** " عامر وجدي " العجوز ٠٠ بما أنه سكندري المولد ، قضى كل حياته في أحضان الصراعات السياسية بالقاهرة : فمن السهل استنتاج أن كل الشخصيات باستثناء ماريانا – يرتبطون بالمنطقة الخلفية السكندرية بروابط متينة ، كالتي تربط المدينة بـ " القارة المصرية " !

وكـذلـك وجود البحر ، دون أن يعطي للمدينة لون البحر الأبيض المتوسط ، جعلها تستند إلي بلدها الخلفي ، بتحديد الأفق الذي يفسر فيه : المكان البحري ، عند محفوظ في هذه القصة ، و بعنوانها نفسه ، ليس إلا طبيعة هادئة أو عاصفة حسب الأيام ، علاوة على أن طبيعتها البحرية محايدة إلي حد ما ، مع وجود متكرر لمسطحات مائية أخرى مثل قنال المحمودية أو النيل و على شواطئها تمتد " الكازينوهات " تشبه تلك التي على الكورنيش ٠

والبحـــر ليس هو نفسه الموجود عند " داريل " مفتوح ، كطريق واسع يؤدي منطقياً إلي أوروبا فلم تكن هناك إشارة للجهة الأخرى، البحر الأبيض المتوسط، و الذي لم يذكر أبداً في " ميرامار " و لم ير مطلقاً !

دلالـــــة وصورة لتلك العلاقة بالبحر ، تناولتها كل من القصتين ، مكان أصل القصة يختلف بطريقة متعمقة : إذا كانت " التيترالوجي " تقع في جزيرة في بحر إيجه ، المكان الذي تكمن فيه الدعوى التوضيحية للقصة في مجموعها ، منفصلة عن المدينة مكانياً و زمنياً والعكس في " ميرامار " فقد رأينا المكان ، يقدم الأصوات التي تحكى كأنها عاصرت – بكل تأكيـد – الأحداث التي سردت ، وبالمثل تولد من نفس المكان مثل الأحداث ، مكان متوسطي لا أكثر و لا أقل " دارلي " يتحدث عن اليونان و عن إسكندرية يونانية ٠٠ " عامر وجدي " يتحدث عن غرفته في بنسيون " ميرامار " وعن الحياة خلال الشتاء في مكان صيفي !

مـؤامــرات :-

ومـــــن ناحية أخرى ، الملاحظات البيئية و التغيرات المفاجئة التي تطرأ على المشاعر ، وحكى الأحداث الصغيرة بالمدينة فكل رواية من الروايتين القيمتين ، تعطي مكاناً ، خفياً بدون شك ، و لكن في تحليل أخير ، استراتيجي ، بتقديم و تتبع خيوط نوع من المؤامرات و ذلك ما يمكن أن يوجه القاريء الذي يميل بطبعه لأن يرى في " الرباعية " كما في " ميرامار " قصصاً رومانسية أن يضفي على نفس الروايات : صفة "البوليسية " بمعنى أن " أبهة و بؤس العاهرات " على سبيل المثال – هي أيضاً قصة بوليسية ، فسير الأحداث فيها يحدد جانباً كبيراً من تطور دسيسة سياسية بوليسية !

فـــــي الرباعية نجد أن وجود مجتمع سري خفي ، يديره " نسيم " هو الذي يحسم مصير – مأساوياً أحياناً – عدد من الشخصيات ، و بأسلوب غير مرئي ، كما في "جوستين" و "بالثازار " ٠٠٠ أو يحسم بشكل واضح محدد ٠٠ كذلك التقارب بين نسيم "وجوستين " غير قابل للتفسير !

وفـــي " ميرامار " كانت عملية التهريب التي خطط لها " سرحان " ثم أدت إلي انتحاره بعد فشلها ، و تسببت في تشتيت عام لمجموعة البنسيون ٠٠ !

مـدينـــة الإسكندرية زودت الروايتيـن بإطار للأعمال الغامضة ، كأن كل منهما لم تستطع أن تجد ديكوراً أكثر خصوصية ، و لا شخصيات أكثر موهبة في أماكن أخرى !

ومـــــن " داريـــل " إلـــي " محفـــوظ " ٠٠ يظـل الـتحول العميق لهذا العنصـر السكندري في أعلى درجاته " التـآمــر " !

ومـــــن السـهل أن نـرى الفرق في الرؤى السياسية الغامضـة للجمعية السريـة لـ " نسيــم " وأصدقائـه " المتـآمـرون " ، و بيـن البحث الانـتهازي عن الثروة في التهريب في مجموعة " سرحان علي بكير " ٠٠ !

بالإضـافـة إلـي اختلاف المستوى ، الـذي يميز العمليتـين السـريتين ، أيضـاً تـباين مستوى المكان الـذي فـي أحضـانه قد انتشـرت و اتسعت العمليتان مكان دولي مفتوح على مصراعيه ، فـي الرباعية (يتعلق بمصـر و إنجلترا و فلسطين) ومكان محلي في نطاق ضيق في ميرامار (وهي عملية تهريب كمية من القطن لبيعها في السوق السوداء) ٠٠٠

ويمكـــن أن تجـري نفـس الملاحظـة لدراسـة تماثـل المتناقضـات في " شـركـة الأصـدقـاء " التـي تـربط بـين " نسـيـم " و " جوسـتيـن " وبالمقارنـة بـتلك التـي تـربط بـين " حسن علام " و " صفيـة " ٠

وعقـــــدة التماثل تتضـح أولاً فـي موقف المرأة " جوستين " لم تعرف نسيم إلا بعد أن تخلي عنها " الأرناؤطي " مثل " صفية " لم تتقرب من حسني علام إلا بعــد أن هجرها

( )

سرحان ، توجد أيضاً علامة توازي أو تماثل و لكن عكسية ، في طريقة سير الأحداث ، يوجد اقتراح بعقد من طرف واحد ولكن الطرف المقترح في " مونتاوليف " هو الرجل ، بينما في " ميرامار " المرأة هي المقترح ٠

فـــي الحالتين لا شك أن الزواج هو " زواج شركة " (أو زواج مصلحة) ، ولكن المجال المقترح لهذه الشركة مقبول ضمنياً – يختلف " الدايمون – Daimon " التابع لنسيم ، تنازل عن المكان لمشروع استرداد و استغلال كباريه ، كالذي تأمله "صفيـــة "

تبقـــى العلاقة العميقة مع الأجنبـي و هو في "مونتاوليـف " الخصم الذي هـزم سـراً (الإنجليزي ، الاحتلال البريطاني) و فـي " ميرامار " مجرد منافس تجاري ، ليحل محل " الخواجة " (المالك القديم للكباريه و الذي يستعد لمغادرة البلد) ورحيل الأجانب، هذا منظور من الزاوية التجارية لتحقيق تجارة رابحة ، تبدو أيضاً خلف مشروعات بائع الجرائد ، الذي سيستقر في نهاية القصة في مطعم " بنايوتي " اليوناني ٠

هـــذا التدرج النسبي للمؤامرة أو الدسيسة ، بإنكماش أهدافها ، تنعكس أيضاً في استبدال الثنائي المأسوي " نسيم – جوستين " بالثنائي " حسني علام – صفية " ٠٠ فيرمز إليهم بعودة التعبير الطريف ، صدى دعابة ساخرة " فيريكيكو ، لا تلومني ! " ٠

أمـــا بالنسبة إلي رحيل الأجانب ، أياً كان " الخواجة " مالك الكباريه ، أو بنايوتي ، يبدوفي " ميرامار " شيء مكتسب ، و تقريباً تام : آخر المؤسسات التي لم تزل في أيدي غير المصريين في طريقها إلي تغيير المالك ، و السائحون المنتظرون هم ليبيين أثرياء ، و الشعب في طرقات المدينة و في البنسيون – العالم الصغير لهذه المدينة بمفردها بقيت " ماريانا " المالكة اليونانية لـ " ميرامار " لتكون شاهدة على أصول المدينة !

ولكنـــا نلاحظ ملاحظة سريعة أن كل يونانية الاسم والدين أياً كانت ، يحب الروائي أن يمصرها بطرق عديدة " رمزية " برباط التبني تقريباً الذي يربطها بالخادمة – الفلاحة " زهرة " (وفي هذا الدور الاستبدالي العائلي الذي تقوم به حيال الفتاة الشابة ، لا نعرف ما إذا كانت العجوز اليونانية قد تلقت حماية رمزية) – بالإنفعال الذي أبدته – على غرار المقيمين بالبنسيون بأغنية أم كلثوم وبميلها الذي يبدو أنها شعرت به نحو الوفدي العجوز " عامر وجدي " منذ ماض بعيد نسبياً ٠

وفيمـــا يتعلق بالمؤامرة ، قد ينبغي أن نتحدث عن تلك التي دبرها زوج درية في الخفاء مما أدى به فشلها – بسبب خيانة " منصور باهي " الغير مقصودة ؟!! إلى السجن و مع أن الروائي كان غامضاً حيال هذا الموضوع ، إلا أنه يبدو بوضوح ، أن المجال الذي نفذت فيه هذه المؤامرة و الأهداف التي ترمي إليها ، لم تتجاوز السياسة الداخلية المصرية ، و الأدق إستغلال السياسة لتدعيم نفوذ حزبي ، و ليس هناك وجه مقارنة مع المجتمع السري في " الرباعية " ٠٠

فـــــي النهاية ، مؤقتاً ، و في إطار استقصاء الصورة ، صورة مدينة الإسكندرية في روايات " داريـل " و " نجيب محفوظ " كنا نود أن نبرز بوضوح أكثر ، الشكل المميز لهذه الإسكندرية الجديدة ، التي تترائى عند الروائي المصري استعادة الإسكندرية أو فتحها من جديد ٠٠ في عشرات السنين من الحياة – و من الخيال – الأجنبية في جوهرها ، الإسكندرية كما استردتها القومية المصرية الشابة و كما ستتملكها مرة أخرى !

الإسكندرية : الماضي ، الحاضر ، المستقبل

كتـــاب صغير الحجم ، رائع في مادته ٠٠ بعنوان : " الإسكندرية : الماضي ، الحاضر ، المستقبل " تحدث فيه الكاتب و الأديب الفرنسي عاشق المدن المتوسطية " جان امبيريور " * عن تأسيس مدينة الإسكندرية ، و أهم معالمها في ذلك العصر ، وسكانها وأنشطتهم التجارية و الصناعية ، الفنار و مقبرة الإسكندر الأكبر و مكتبة الإسكندرية القديمة و دورها الثقافي بالنسبة للعالم القديم ، و بحلول عام ٢٠٠ ق ٠ م أصبحت المدينة أعظم مراكز العالم في العلوم و الفلسفة و الرياضيات ٠٠٠

وتحــــدث " أمبيريور " عن الملكة الأسطورة " كليوباترا " ٥١ ـ ٣٠ ق ٠ م والتقلبات السياسية التي كانت سمة عصرها ، و قبولها مساندة " يوليوس قيصر " ثم لقائها بـ " مارك انطونيو " الذي دعمها في حربها ضد أوكتافيوس الذي حقق انتصاره في الموقعة الشهيرة " اكتيوم " و دخوله الإسكندرية ثم النهاية الدرامية لكل منهما لينتهي حكم و عصر البطالمة ٠٠

ثـــــم عرض امبيريور للإسكندرية في العصر الروماني ، و بدء إنتشار المسيحية على يد " سان مارك ـ ٤٠ م " و إزدهار العلوم الفلسفية خلال القرون الأربعة الأولى ، ثم اضطهاد الرومان للمسيحيين والذي وصل لذروته تحت حكم الإمبراطور " دقلديانوس " ٢٨٤ ـ ٣٠٥ م و في عام ٣٩١م دمر المسيحيون معبد " السيرابيوم " الشهير ، و في العام التالي أعلنت المسيحية ديناً رسمياً للدولة ! ٠٠ و تحدث المؤلف عن كنائس الإسكندرية في ذلك العصر ٠

---

* Jean Yves Empereur : Alexandria - Past , Present and Future, thames a Hudson , London ٢٠٠٢.

( )

وفـــــي عام ٣٩٥ م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلي غربية (روما) و شرقية (القسطنطينية) و هي التي عرفت باسم الإمبراطورية البيزنطية و التي حكمت مصر ، و نشأ الخلاف حول " طبيعة المسيح " مما أسفر عن إستقلال الكنيسة المصرية "القبطية " وصار لبطريرك الإسكندرية مكانة رفيعة !

ثـــــم عرض لفتح العرب لمصر ثم الإسكندرية ، و أن المدينة طالها الإهمال نسبياً ، و تحدث أيضاً عن تشييد الأسوار العربية و التي مازالت أطلالها ماثلة للعين ، وعرض للإسكندرية في عصر الإمبراطورية العثمانية ، و بداية نشأة " المدينة التركية " وهي التي تمثل قلب الإسكندرية ، و إهتمام سلاطين المماليك بالمدينة ٠٠٠ ثم عرض للحملة الفرنسية التي بدأت بالاستيلاء على الإسكندرية عقب مقاومة باسلة من أهلها ٠٠٠

وخصـــص المؤلف فصلاً كاملاً عن " محمد علي باشا " باعث نهضة مصر الحديثة ، و أشار بأن برنامج التحديث كان يشمل إعادة الحياة للإسكندرية ، حيث شرع بحفر " قناة المحمودية " و إنشاء ترسانة الإسكندريـــة و تحديث الميناء و الورش التابعة له ، و تشجيع الأجانب على الإقامة بالمدينة و تطويرها ٠

وكـــــان له الفضل في تدريب الآلاف من العمال والفنيين في إنشاء وإصلاح السفن و الورش البحرية ، و شيد محمد علي فنار رأس التين بالإضافة إلي المدارس ومعاهد التدريب ، و توافدت الهجرات الأجنبية على المدينة و تزايد تعداد سكانها ، و نقلت المقابر إلي خارج المدينة التي شهدت نمواً ملحوظاً في مجالات النظافة و الصحة العامة ، و في عهد حفيده " عباس الأول " الذي لم يكن في مثل عظمة جده ، تم توقيع عقد مع "ستيفنسن " لتشييد خط سكة حديدية من الإسكندرية للسويس و كان خلفه " محمد سعيد باشا" مغرماً بالإسكندرية ، فشيد لنفسه قصراً رائعاً في ضاحية القباري ، و مد المزيد من الخطوط الحديدية ، و تحسنت قناة المحمودية بشكل ملحوظ ، و وصل الإسكندرية بالقاهرة بشبكة من خطوط التلغراف ٠

أمـــا الخديو " إسماعيل باشا " فقد أراد أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا ، فقفزت المدينة في عهده قفزة هائلة وشهدت تطوراً كبيراً وتقدماً ملحوظاً في مجالات التجارة الخارجية والداخلية و كان هناك الهجرة الواردة من الخارج التي أقامت مشاريع أجنبية مثل التجارة و النقل و السفن و شركات الملاحة وبعض المصانع و البنوك ٠٠ وتزايد نشاط التجارة في ميناء الإسكندرية فيما بين عامي ١٨٦٣ ، ١٨٧٣ لتكون ٩٤% من إجمالي صادرات مصر و قد أقام إسماعيل أحياء جديدة و مد الطرق و في ضاحية الرمل شيد قصر الرمل ، وقد وهب قطع من الأراضي في الضاحية للأوروبيين الذين بنوا القصور الجميلة و من هؤلاء كان الكونت " زيزينيا " وكان يونانياً و هو القنصل العام لبلجيكا الذي على إسمه وجد حي شهير بضاحية الرمل ، و الإسكندرية كانت واحدة من أولى المدن التي بنت تحت الأرض نظام للصرف الصحي وأول شبكة بدأت تعمل في عام ١٨٧٨ وكانت تمتد تدريجياً مع زيادة السكان وفي عهد إسماعيل إمتدت شبكة مياه الشرب ، و كانت تطهر وتنقي في محطة لتنقية المياه و كانت تضخ في أنابيب عبر المدينة ، وأفتتحت أيضاً عدة شوارع جديدة ٠

وبنـــى داخل الميناء مرسى للسفن و تسهيلات بحرية أخرى تكلفت أكثر من ٣ مليون جنيه مصري و قد شيدت عدة فنارات في العجمي ١٨٧٣ وأقيم آخر عند حاجز الأمواج ١٨٧٦ وفي القباري ١٨٧٧ و توسعت شبكة خطوط السكك الحديدية من الإسكندرية وفي نفس الوقت لم يصبح الأوربيين جزءً من المجتمع السكندري و لكن شركاء في إدارة البلدية (الشئون الداخلية) و السلطة التنفيذية تشتمل على ٥٠ % من الأجانب أغلبهم من السويسريين ، ذلك كان الوضع في الإسكندرية عندما قامت الثورة العسكرية ضد ظلم حكم الأجانب التي انفجرت سنة ١٨٨٢ بقيادة عرابي باشا و كان أول فلاح يصل إلي رتبة " كولونيل " بالجيش المصري ! ٠٠ و شكل عرابي و رفاقه تهديداً للمصالح الأجنبية في مصر ، فتحرك الأسطول الفرنسي ، و الأسطول البريطاني و بعد عدة مفاوضات ومساومات ثم إنذارات ٠٠٠ انطلقت مدفعية الأسطول البريطاني في الساعة

السادسة يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ لتدمر كل شيء في المدينة الجميلة ! ٠٠ وخضعت مصر للاحتلال البريطاني و أصبحت الإسكندرية بعد تعميرها شبه مدينة مستقلة و أوروبية أكثر من أي مدينة أخرى في مصر !

تــزايــد نشاط الجاليات الأجنبية في الإسكندرية : شكل اليونانيين الفئة الأولى منهم وقد بلغ تعدادهم في إحصاء عام ١٨٩٧ نحو ١٦ ألف نسمة ثم الإيطاليون وقد بلغ تعدادهم نحو ١٢ ألف نسمة ثم الإنجليز نحو ٩ آلاف والفرنسيون ٦ آلاف و النمساويون نحو ٤ آلاف ، و تضاعف عدد الأجانب حتى بلغ في إحصاء عام ١٩٢٧ نحو مائة ألف نسمة معظمهم من أوروبا ، و تدفقت رؤوس الأموال الأجنبية و شددوا قبضتهم على حركة المال و التجارة بالمدينة و حصلوا على الكثير من الامتيازات الاقتصادية الضخمة ، و كانت لكل جالية احتفالاتها القومية و الاجتماعية ، و تمتعت بكافة أشكال الحرية الاجتماعية والدينية ، فكان لكل جالية كنائسها و معابدها و مدارسها و نواديها و مستشفيات و مقابر خاصة بها ، و تميزت الجالية اليونانية برجالها و مؤسساتها وقد امتدت أنشطتها حتى شملت إصدار الصحف و المجلات و طباعة الكتب و ثلاث ترجمات للقرآن الكريم عام ١٨٧٩ م

ثـــم عرض امبيريور للمجتمع الأوروبي و حياته في الإسكندرية ، و أشهر عائلات المدينة : توسيزا ، سلفاجو ، أفيروف ، بيناكي ، سوارس ، دي منشه ٠٠٠ كما تحدث عن أدباء الإسكندرية و منهم كفافي ، فورستر ، داريل و/ منظومة الثقافة المصرية الحديثة ، و التحول من الملكية إلي الجمهورية الرئاسية و نهاية الامتيازات الأجنبية ، عرض امبيريور لثورة يوليو ١٩٥٢ ، حيث كان الملك فاروق في قصر المنتزه على شاطيء البحر في نهاية الطرف الشرقي للمدينة ، و في يوم السبت ٢٦ يوليو تنازل الملك عن عرش مصر و غادر سراى رأس التين إلي إيطاليا ، و لتشهد مصر تطورات هائلة كان بدايتها إعلان " ناصر " تأميم شركة قناة السويس و الذي كان الشرارة الأولى للحرب الثلاثية ضد مصر عام ١٩٥٦ م ٠

( )

ثـــــــم يعرض امبيريور لمشاهداته للآسكندرية الحديثة ، مستعيناً بشذرات من السيرة الذاتية لبعض أعلامها من الأجانب من ذوي الأصول المختلفة من أنحاء العالم ، في فترة كانت فيها المدينة مركزاً تجارياً و ثقافياً هاماً على ساحل المتوسط ، مؤكداً ارتباطها التاريخـــي بالحضارة الأوروبية باعتبارها موطناً لتنوع سكاني عالمي ، كان له تأثيره في " عولمـــة " جذورها التاريخية و الثقافية المنتمية لحضارة البحر الأبيض المتوسط ٠٠٠٠

وتحمـــل صفحات الكتاب بين طياتها ، تجربة المدينة من خلال حربين عالميتين ، مستكشفاً حياة الجاليات الأجنبية ممن أسهموا في إكساب الإسكندرية هذا الطابع المتفرد ٠٠ وبالرغم من أهوال الحرب و نتائجها الرهيبة ، يقول امبيريور أن الإسكندرية قد فتحت صفحة جديدة من التشييد و التعمير ، حيث ردمت بحيرة و مستنقعات حي الحضرة وأنشئت ضاحية " سموحة " عام ١٩٣٤ ، و بدأت حركة عمران هائلة بطول الشاطيء بإنشاء طريق ساحلي تكتنفه الأشجار و هو ما عرف بطريق الكورنيش و منتزه الملكة نازلي ، وأقيمت الكبائن الخشبية و المطاعم و الحدائق من المنتزه و المعمورة و أبو قير شرقاً ، حتى العجمي و الهانوفيل و سيدي كرير غرباً ٠٠٠٠

وقصـــر المنتزه كان المقر الصيفي للعائلة المالكة ، و قد شيد على هضبة تطل على أكثر شواطيء الإسكندرية سحراً و فتنة ، و كان القصر محاطاً بمساحات هائلة من الحدائق والبساتين الملكية ، بلغت ٣٧٠ فداناً ، و عقب الثورة فتحت حدائق القصر وشاطئه لعامة الناس ، و تحول " السلاملك " إلي فندق سياحي ! ٠٠ وفي عام ١٩٦٤ شيد فندق "فلسطين " الرائع بحديقة المنتزه ، و تتمتع المدينة بالطرق الطولية المتسعة تحفها الأشجار و المتنزهات مثل " طريق الحرية " الممتد من باب شرقي إلي فيكتوريا ، و طريق النصر الذي يصل الميناء بوسط المدينة ، كما تتميز المدينة بالساحات المفتوحة و الميادين ، منها ميدان الخرطوم الذي يزدان بالتماثيل والأعمدة ، و ميدان الجنرال عبد المنعم رياض الذي تزينه نافورة جميلة و ساعة للزهور ، ثم ميدان محطة الرمل الشهير والشوارع أوروبيـــة

الطراز التي تتفرع منه مثل شارع سعد زغلول ، و شارع صفية زغلول ، و شارع النبي دانيال ٠٠٠ ثم ساحة أو ميدان سعد زغلول و تمثاله الشهير المتجه نحو البحر ، و فندق سيسل و مبنى الغرفة التجارية ، وفي حي السلسلة تمثال نحته " فتحي محمود " يمثل رمزاً لخرافة قديمة عن نشأة الإسكندرية ، و بوسط المدينة حدائق رائعة : انطونيادس ، الشلالات ، حديقة الحيوان ، حديقة الزهور ٠٠٠ و الميناء الشرقي أصبح يستخدم لهواة اليخوت ومراكب الصيد ، أما الميناء الغربي فما زال يستقبل الناقلات و السفن الضخمة ، تميزه بوابة الركاب في المحطة البحرية القريبة من ميدان المنشية وساحة عرابي ، والإمكانيات الضخمة للميناء مع وسائل التحديث المستمرة تجعله قادراً على استقبال ٦٥ سفينة من مختلف الأحجام في اليوم الواحد !

في نهاية القرن التاسع عشر ، بدأ عصر الاكتشافات الأثرية بالإسكندرية ، وآثار تنتمي لعصور البطالمة و الرومان و العرب ، ففي منطقة كوم الشقافة (راكوتيس الفرعونية) اكتشفت أقدم مقبرة رومانية عام ١٨٩٢ ، و المسرح الروماني الشهير في عام ١٩٣٦ ، و أطلال الحمامات الرومانية ، و مقابر و أسوار عربية في كوم الدكة ، كما اكتشفت مقبرة بطلمية في الأنفوشي (جزيرة فاروس) و بقايات صهاريج المياه بأسفل المدينة ، و مقبرة الشاطبي الأثرية بالقرب من كلية سان مارك و معبد ايزادورا الذي شيد في القرن الثاني الميلادي ، و الكثير من الآثار المكتشفة محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني ٠

ويقول امبيريور عن ميدان سعد زغلول بأنه : "مكان جيد لاستكشاف الإسكندرية و الذي ينفتح على روعة الميناء الشرقي ، و تمثال الزعيم الوطني الشهير سعد زغلول ١٨٦٠ _ ١٩٢٧ يقف بشموخ في مواجهة البحر ، و هو الذي كرس حياته من أجل وطنه واستقلاله عن بريطانيا ٠٠٠٠٠ " و يضيف امبيريور : "في نفس هذا المكان ، و منذ ألفين سنة شيدت كليوباترا معبدها الضخم المذهل " القيصروم " ٠٠ و في هذا الموقع كانت مسلتا

كليوباترا ، و اللتان حملتا أسماء فراعنة الدولة الحديثة : تحتمس الثالث ، سيتي الأول ، رمسيس الثاني ، و قد نقلت المسلة الأولى إلي لندن عام ١٨٧٧ والثانية عام ١٨٧٩ إلي نيويورك حيث تقف الآن بميدان سنترال بارك ٠٠٠

أمـــــا عن فندق سيسل ٠٠٠ فيقول امبيريور أنه يقع في الركن الشمالي الغربي من الميدان ، وفي موقع عتباته كان مصرع كليوباترا ، و أجمل الغرف هي التي تطل على الكورنيش و البحر حيث مدى الرؤية يصل إلي قلعة قايتباي ، وقد شيد الفندق عام ١٩٣٠ ، وتحيط به عدد من الشوارع الهامة ، و مطاعم قديمة و حوانيت و مقاهي و حلوانية أشهرهم : تريانون و أتينيوس ، و ترام الرمل الشهير في اتجاهه شرقاً ، يمر بمسجد القائد إبراهيم ، ليصل إلي فيكتوريا ، و في اتجاهه غرباً ، يمر بميدان الجوامع أشهرها جامع أبي العباس المرسي ، ليصل إلي قصر رأس التين ٠٠٠ و يستطرد امبيريور في حديثه عن ترام الرمل ، فيقول : " ذلك القطار الصغير ذي الطابقين بعجلاته الحديدية ، لا يعتبره أهل الإسكندرية مجرد وسيلة مواصلات ، بل حاله يتعايش معها أهل المدينة ، وبرغم ما يصدر عنه من ضوضاء تهدر في كل اتجاه ، إلا أن أحداً لم يشك من ضجيجه ، فقد أصبح في النهاية : جزءاً هاماً من حياة الناس و المدينة " !

الإسكندرية ... مجتمع مشرقي

هـــــذه الدراسـة التي أعدها البروفيسور " يانـا كاكـيس " ... عبـر فـيها عـن مشاعره الذاتية تجاه صور و مشاهد من الحياة الواقعية للإسكندرية .. في عبارات رشيقة موجزة ، تلقائية ، كما عرض للفكر الجماعي للطوائف الأجنبية ، و المشاعر المشتركة في جو من الحرية و التسامح ، و العالمية الثقافية للإسكندرية - إطلاله مصر على أوروبا - وعالمية المواطن و أسلوب التفكير الثقافي و الاقتصادي و الاجتماعي الناجم عن إختلاط الهويات ، و ليكشف لنا سر علامة الاستفهام التي يضعها معظمنا عقب كلمة الإسكندرية ؟

يقول ياناكاكيس :

أسمحوا لي قبل أن أعرض لانطباعاتي الموجزة أن أستدعي إحساسين أشعر بهما راسخين في ذاكرتـي ، ولدت بالقاهرة وقضيت طفولتي و مراهقتي في هذه العاصمة المبجلة ، عاصمة مصر ، التي يتهددها الإنفجار السكاني ، و جعلها اليوم لا تطاق فيها الحياة !

والإسكندرية بالنسبة لي تعتبر " المدينة الثانية " تقع على أقصى الساحل المصري ، منحرفة عن المحور بالنسبة لدلتا النيل .

إسكندرية ، كانت سفينة على سفـر : أذهب " هناك " خاصة في أجازات الصيف ، وكان ذلك يعني أني أغادر مصر .

---

* LE MIROIR EGYPTEN : " L' IMAGINAIRE CREATEUR D' HISTOIRE : L' EGYPTE DE PHARAON AU SAINT - SIMONISME " ; MARSEILLE ; ١٩٨٤ ILIOS YANNAKAKIS : " ALEXANDRIE : SOCIETE LEVANTINE ? " PP. ٧٩ - ٨٥

- إليـوس ياناكاكيس : مؤرخ ، ولد بالقاهـرة ، أستاذ العلاقات الدولية بجامعـة (LILLE III) بفرنسا .
- نشرت هذه الدراسة بصحيفة " أخبار الأدب " العدد ٦٢ ، ١٨ سبتمبر ١٩٩٤

( )

كنـــت أيضاً ، أنصت إلي رنين " اللغة " التي يتحدثونها : لغة " أجنبية " غريبة يفهمها المطلعون على سرها فقط !

كنــــا نتوغل في مجتمع مجهول للقاهرة ٠٠٠ هذا ميدان الرمل ، هذا " الصحن " الفسيح الذي يهب عليه نسيم البحر ، مداعباً تنورات الفتيات ذوات السيقان البرونزية ٠٠ يحيط بهن فتية يرتدون قمصاناً واسعة مفتوحة على الصدر ٠٠٠ كل الناس يبدون و كأنهم يعرفون بعضهم و الجميع يحيوا بعضهم و نحن القاهريون ، نشعر بأنفسنا مستبعدون عن هذه الإيماءات (سنذهب لنشاهد فيلم يوسف شاهين " إسكندرية ليه ؟ " حيث يوضح برقة بالغة إختلاف المجتمع السكندري عن مثيله القاهري) ٠

كنـــت أجهل حتى حينه الأسباب التي تجعل من الإسكندرية مدينة لها طابعها الخاص ، و لكني كنت أشعر بحرية في إعتبارها عقبة أو مدخل إلي عالم آخر في نهاية الأربعينيات ، و كنت وقتئذ حاصل على البكالوريا ، سافرت إلي GENES **قبل** وصولي إلي باريس ، فإكتشفت و أنا في حالة ذهول ، أوروبا الهزيلة الشاحبة نزفت دماءها ، قبيحة شديدة النحول ٠٠٠ طاعنة في السن ٠٠

" أهـذه هـي أوروبـا ؟ سـألـت نفســي ٠٠٠ ! "

دعانــي الحنين ، عدت آملاً أن أجد في أعماق البحر ، الإسكندرية البيضاء التي يمتد شاطئها متلألئاً من الرمل حتى قصر المنتزه ، تحده العمارات الحديثة ، حيث الفيلات الثريه سابحة في الخضرة ، و البلاجات ذات الرمل الناعم ، حيث ترتفع المطاعم على أعمدة قوية من الخشب - ويطلق عليها تسميه فخمه : " كازينوهات " مغلفة باللون الأخضر الصديء ٠٠ لحظة حنين ، ولكني وطئت أرض أوروبا ، حلم أوروبا ، موطن الخيال الأوروبي كان في متناول اليد ، و فجأة أصبحت الإسكندرية ذكرى ، الحنين إلي الماضي ، الذكريات ، الثقافة ، الألفة ، الحداثه ٠٠ إطلالة مصر على أوروبا ٠٠٠ في هذه

( )

الكلمـــــات ، يكمـــن تمامـاً سـر علامـة الاسـتفهـام التـي يضـعها معظمـنا بعـد كلمـة "الإسكندرية " ٠٠ ؟!

فـــي الواقـع ، الحـديث عـن الإسـكندرية يـتطلب أن ننحـي جانـباً الرسـوم البيانـية العاديـة للتحليل الاجتماعي الاقتصـادي ، و تقريباً التاريخـي ، الإسكندرية باعتبارها مكاناً خاصـاً ، فـريداً ، لا يمكـن فهمهـا إلا بمنحنـى عقليـتها ، لأن مـوطن الخـيال ، و الحقيقة ٠٠ وتمايـز شخصـيتها و القطـر المصـري و أوروبـا ، وتبـيان الـثقافات ، و ثقافـتها الخاصـة ، تختلط ببعضها البعض دون أن يتسنى لنا رسـم تخوم محدده بين هذه العناصر !

الإسكندرية لهـا تأثيرها السـحري ، و قد ألهمـت هـذه المدينة الأدباء ، كما لم تلهمهم من قبل أي مدينـة من مدن البحر الأبيض المتوسط ، فأبدعوا أعمالاً أدبية عظيمة ، تشكل جـزءاً مـن التـراث الثقافـي لـبلادنا الأوروبـية مـثل روايـات : " رباعـيات الإسـكندرية " ، "ميرامار " ، " مدينة يجرفها التيار " ٠٠ الإسكندرية الفريدة : ومع أنهـا تزخر بالـتاريخ فهي مدينة المائـة عام التـي تبدأ حوالـي عام ١٨٥٠ ، و تنتهي بعام ١٩٥٠ ، ففي غضون هذه المائـة عـام : إمتصت ، واستوعبت ، و بذلت جهداً ، وأبدعت ، كل مـا أنتجته عالمية المـواطن و طـريقة تفكيره الثقافية ، كل ما هو أكثر إثارة ، للحواس ، وأستطيع القول ، كل ما هو أكثر إثارة للشهوات ٠٠ !

فـــي رأي ، أن العالمية الثقافية للإسكندرية ، كانت البوتقة التي تنصـهر فيها العقليات لمختلف الـتجمعات الأجنبية ، التـي إستقرت فـي هذه المدينة خـلال هذا " القرن " ومن هذه الـبوتقة الساخنة المتأججة ، سالت العقلية السكندرية التي أدركها كل من ديريل - Durell وتسيركاس – Tsirkas ، الأول في " رباعيته " و الثاني في " مدينة يجرفها التيار " ٠

( )

عندما أتسائل لمعرفة ما إذا كانت الإسكندرية مدينة مستقلة في القطر المصري ٠٠ ؟! أعلم جيداً أنه على أن أواجه بعض الأيديولوجيات التي تثير اليقظة الوطنية والإحساس بالقومية المصرية ، ومع ذلك ، ينبغي أن أجيب على سؤالين أساسيين في جوهر هذه الانطباعات ٠٠٠

السؤال الأول الذي أطرحه هو معرفة ما إذا كانت الطوائف الأجنبية في الإسكندرية ذات طابع استعماري ، وعما إذا كان المهاجرون في موجات متتابعة إلي الإسكندرية ، كما يقول عنهم أنور عبد الملك في كتابه المعنون : " الايديولوجيه والنهضة القومية " أنهم مغامرون ومضاربون ، تدفعهم شهوة الكسب ٠٠؟

والسؤال الثاني ينصب على معرفة ما إذا كانت هذه الطوائف ، إبان التوسع والنشاط المطلق قي غضون هذا " القرن " لبثوا بعيداً عن العالم المصري ، و إذا كوّن أفرادها ثروة في يوم من الأيام ، يأخذون في حسابهم العودة إلي " أوطانهم الأم " ٠٠ ؟

وأستوضح أكثر ، هذه الطوائف ، أجنبية عن مصر ، أم بفضل الفكر الجماعي محرومة من كل إحساس قومي ـ تشعر بأنها دخيلة على مصر ؟

وللإجابة على السؤال الأول ، أطرح مثالاً عن الطائفة اليونانية ، بما أنها الأكبر عدداً ، و الأكثر ديناميكية ، و فضلاً عن ذلك ، فأن العديد من الشواهد و الدراسات تساند حديثي ٠

وأود أن أذكر بأن اليونان في القرن التاسع عشر كانت من الدول النامية : إقتصادياً وثقافياً ، الفكر القومي كان كالجنين في رحم أمه ، و يشعر اليوناني بأنه مرتبط بطائفته القروية كوحدة قومية ، مجاله العقلي هو " ملة عثمان " !

( )

جـــزءً من جزيرته جاف ، فيبحر إلي الإسكندرية المدينة التي توجد في " مجاله الجغرافي " على بعد " مسافة بشرية " من جزيرته مسقط رأسه ، فهو لا يغترب ، وليس لديه الإحساس بأنه يقطع محيطات وقارات بينه و بين الأرض التي يهجرها ، وبذهابه إلي الإسكندرية فهو ينتقل إلي منطقة محدودة ٠

فالإسكندرية ومصر لا تمثل بالنسبة له " أميركا ، أميركا .. كازان - Kazan !! " هو يعلم أنه ذاهب إلي مدينة في أوج عظمتها ، و أنه يبحر إليها بتذكرة دون الحاجة إلي جواز سفر و أوراق حالة اجتماعية

وفـــي واقع الأمر ، أنه أتى بأميته ، و جهله ، وتخلفه ، ليلتقي بحضارة وإدارة ، ومجتمع مكون من طبقات ، فالمصري الفقير ليس هو الوحيد ، و لكنه أيضاً الثري ، والرئيس و الأفندي ، و البيه ، و الباشا ٠٠

إذا جاور يومياً المصري ، الذي يرتدي " الجلابيه " و إذا أقام في الحي العربي ، فعنده أيضاً المجال لأن يجاور المصري الذي يرتدي " الجاكته " و " البنطلون " المنتمي إلي الطبقة الثانية ٠

فاليوناني سيعيش دون تعقيد مع الفقير و مع الثري ، دون أن يستطيع أي حدث أن يعكر صفو الألفه ، فرئيسه : ربما يكون مصرياً ، و أحياناً يكون مواطناً نجح في أعماله ، باختصار فهو يشارك في جماعته دون أن يشعر بأي إحساس بالعداوة و البغضاء أو إحتقار نحو المصري ٠

وتلـــك هي الحالة أيضاً بالنسبة للإيطالي الذي يغادر بلدته البائسة " سيشيل " أمي غير متعلم ، بناءً صغير في حالة بطالة مزمنة ، و الذي سوف يعمل في إحدى شركات السجاير بالإسكندرية و يقيم في حي بالميناء مع جاره و زميله العربي ٠

( )

وتلـــــك أيضاً حالة المالطي و الأرمني و اليهودي من سالونيك أو من استانبول أو يهودي " اشكينازي " هارب من مذابح السلطات القيصرية في أوكرانيا ، مسقط رأسه ، وبعد دورة مضنية بفلسطين التي غزاها البعوض ! إكتشف حضارة الإسكندرية ، و أحس بأنه أحسن الاختيار !

وكـذلك نستطيع القول بأن " الميتل أوربين - Mittleuropeens " المجريين والترانسيلفان ، و الصرب بإختصار ، هذا الخليـــط المدهش من " رعايا الإمبراطور " من النمســـا – المجـــر ، إنهم بمجرد تذكرة يبحرون إلي البندقية ثم للإسكندرية حيث الرخـــاء !

وفـــي رأيي ، أنه الإحساس بالذهاب نحو حضارة ، نحو بلاد الحرية والتسامح ، شعور مشترك عند أغلبية المهاجرين - يؤثر كأنه ترياق ضد سموم الروح الاستعمارية ، بالمعنى المحدد ، الذي نلاحظه عند " الأبيض الصغير " بالمستعمرات ٠

أما العامل الثاني الذي يؤدي إلي حفظ الطوائف الأجنبية من العنصرية ، ينحصر في الحافز الثقافي للمهاجرين ، فالأغلبية منهم لا يعرفون القراءة و لا الكتابة إلا بالكاد ولكن أبنائهم تسنى لهم دخول المدارس الطائفية ، و يتلقون منحاً دراسية ، مع توفير شبكة مراكز تعليمية (الكشافة ، الكورال ٠٠٠٠ إلخ) و الكثير منهم يتعلمون مهنة في المدارس المهنية والتي تدعمها الطائفة ، أو عن طريق مؤسسات دينية ٠

إن المدخل إلــي المعرفة يلعب دوراً إيجابياً في تشكيل العقلية الاستعمارية ٠٠ ! وتجدر الإشارة إلي أن مصر كلها - مع بداية هذا القرن - قد بدأت تجني ثمار التعليم العــام ٠

( )

وهكــــذا ، فالكثيـر مـن المهاجـرين ، مـثل فـئات المجـتمع المصـري " طـبقات بورجوازية صغيرة " يعبرون متزامنين ، فترة التثقيف التـي لطفت من الاختلافات التي يمكن أن تقوم بينهم .

فالـتـآلـف بـين الطوائـف و بعضـها مـن جهـة ، و مـن جهـة أخـرى بـين الأجانـب والمصـريين ، علاقـة أفقية ، أي بين الطبقات الاجتماعية على مختلف المستويات ، يرجع الفضل في جزء كبير منها إلي التقدم الذي تحقق في نشر النظام التربوي .

لـذلــك لا نريد أن نقول أن " الايرينزم - Irenisme " الاجتماعية تحدد العلاقات بين الأفـراد أو الرؤسـاء و الموظفين فـي العمل ، بل علـى العكس ، فالعنف الاجتماعي وإستغلال جموع الفلاحين ، قد وصل إلي قمته ، و لا نريد القول أيضاً ، بأن الأجنبي لا يتمتع بإمتيازات فالمحاكم المختلطة – على سبيل المثال – كانت تقدم قضاءاً أقل ما يوصف أنه مشين للقانون المصري .

كـانــت مصـر منذ العشـرينات ، فـي قمـة الـتحول السياسـي ، و تعـاظم المشـاعر الوطنيــة ، والرغبة في الاستقلال ، و التخلص نهائياً من الاحتلال البريطاني ، كل ذلك يشير إلي عمق التفكير ...

حينئــذ ، كانت هناك حـالات نـادرة من بعض الوطنيين المصريين من مختلف الاتجاهات ، انقلبوا ضد الطوائف الأجنبية ، لكن الغالبية العظمى تشعر بأن : اليونانـي ، والإيطالي ، والأرمني ، أو المالطي ، لا يمثل أي منهم عدواً لهم ! ...

وعلــى العكس ، لم تجد الطوائف الأجنبية في تصاعد المشاعر الوطنية أو القومية المصرية مصدر تهديد لهــا ...

وإذا تحققنا من العلاقات بين الطوائف الأجنبية ، و الوطنية المصرية ، طبقاً للنماذج الإيدلوجية المنتشرة في أوروبا في الستينات ، فمن الصعب أن نلقي على "الإسكندرية " مواقف تطابق مثيلاتها في البلاد المستعمرة .

هكـــذا ، في العشرينات و الثلاثينات ، كنا نلاحظ أن تصاعد القومية المصرية ، قد لاقى إن لم يكن تعاطفاً ، فعلى الأقل تفهماً ، أكثر بين الطبقات المستنيرة من الجماعات الأجنبية ، منه بين طبقات " الشعب البسيط " !

ولتفهّم هذه الظاهرة ، ينبغي التركيز طويلاً على دور المدارس الدينية و العلمانية في تشكيل " عقلية استعمارية " .. و لنلاحظ أن المدارس الطائفية وجهت قدراً من إهتمامها ، باللغة الوطنية ، فاللغة العربية كانت إجبارية لكل التلاميذ ، و حجم الساعات المخصصة لها ، لا يجب أن يستهان به .

والغالبية العظمى من الطلبة كانوا من أصل متواضع ، و كانوا يخالطون في أحيائهم الأطفال المصريين ، و كان الآباء يتبادلون الزيارات للاحتفال بالأعياد أو بأي مناسبات أخـرى .

كـانـت المدارس الدينية مختلطة ، مفتوحة للأجانب والمصريين ، و بكل تأكيد كان هناك " مدارس راقية " و مدارس للطبقات الاجتماعية المتوسطة و في الواقع ، أن المدارس الفرنسية وبعض المدارس الإنجليزية لم تكن تقبل إلا الصفوة من المصريين والأجانـب ... !

وبفضـــل الصفة الخاصة لهذا التعليم ، وروحه ، و الجو المحيط ، استطاعت الطوائف الأجنبية والإرساليات الدينية أن تجعل الطلبة يعيشون الواقع المصري .

( )

ويجـــب إلا ننسى أيضاً أن الأنشطـة الثقافية و الصحافية للطوائف أدت إلي إيجـاد نـوع من التقارب و التعايش بين الأجانب و المصريين ٠٠

فـــي الحقيقة ، و في أحضان الطوائف الأجنبية ، خاصة في الإسكندرية ، ساد فكر تحرري و تقابلت تيارات سياسية و أدبية " والطلائع " الأوروبية سياسية أكثر منها ثقافية ، و جدوا الأرض المناسبة لنشرها و المحافل الماسونية بين الطوائف فتحت للمصريين وأصبحت منتديات ديناميكية حيث انتشر منها " التحديث " الاجتماعي والاقتصادي و " رابطة حقوق الإنسان و الفكر الحر " تضم شخصيات لها تأثيرها ، وجذبت عدداً لا بأس به من الشباب الأجنبي المولودين في مصر ٠٠ في الحقيقة ، أن عالمية فكر المواطن الثقافي ، و العقلي ، الخصب و المثير سمح تماماً بأن مصرية العالم المحيط قد تم إدراكها و معايشتها ، وكجزء مكمل تقريباً سادت حياة الأجانب اليومية واستتبعت تحديد العلاقات بين الطوائف مع المصريين ٠

والإسكندرية أيضاً كانت مهداً لحركة العمال المصريين ، و أدخل الإيطاليون الفوضوية النقابية (مذهب ثوري يسند إلي النقابات أمر تنظيم المجتمع) و الأرمن أدخلوا نظرية " الحرفية " حرفية الصانع الماهر (نظرية اقتصادية اجتماعية تقول بإيجاد مؤسسات حرفية نقابية تخول سلطات اقتصادية و اجتماعية و سياسية) و اليونانيون ، حسب التقاليد ، يتميزون بالنشاط بين عمال التبغ ٠

والاضطرابات التي إندلعت في أسوان عام ١٩٥٠ عند بناء الخزان ، كانت تضم عمال مصريين و أجانب ، و حركة الشيوعية المصرية قد ولدت في الإسكندرية والمؤسسون كانوا مثقفين مصريين و عمال أجانب إنضموا سريعاً إلي أهل الفكر الأوروبـي ٠

( )

وبينمـــا كـان تأثيره محدوداً ، إلا أن هذا الحزب المصري الشاب نجح في أن ينشر بـين الطوائـف الأفكـار الاشـتراكية ، و عمـم الصـراعات الكبيـرة للقومـية المصـرية فـي العشرينـــات ٠

وقـــــد عزلته ، أي الحزب الشيوعي المصري ، تدخلات تكتل الدولية الثالثة و"البلشفة " عن حركة القومية المصرية ! في نهاية العشرينات ، أشرف الحزب الشيوعي على الموت ولكنه ترك آثاره في الإسكندرية ، و في هذه المدينة أيضاً ، سوف تتولد جماعات شيوعية جديدة في غضون العشر سنوات التالية ٠

أشـــرت إلـي أنـه فـي الثلاثينات ، كانت الطوائف الأجنبية في أوج ازدهارهـا ، إندمجوا في الواقع المصري ، و هم يعيشون في نفس الوقت هويتهم الجماعية ٠٠ لقد تحمل الأجانب قسوة الأحداث السياسية التي تنبيء عن الحرب العالمية الثانية ٠

فقـــد وجدوا أنفسهم يدورون في توربين الصراعات السياسية التي تمزق أوطانهم الأم ٠٠٠ و تركت الهوية الجماعية السائدة مكانها للهوية القومية أو الوطنية !

فإيطاليــا الفاشية قد وضعت يدها على الطائفة الإيطالية ، و جندت الإيطاليين الذين لـم تـتمكن مـنهم فـي بدايـة الحـــــرب ، اعـتقل البـريطانيون الإيطاليـين الفاشـيين و غيـر الفاشـيين ٠٠ فـأيقن الإيطـالي أنـه لـيس مـن الإسكندرية ولا من " مصر " و لكنه إيطالي من رعايا إيطاليا الموسولينيه !

واليونانيون بدورهم ، قد وقعوا في براثن نظام " ميتاكساس Metaxas- " الفاشي و تمـزقت قـوة الطائفـة فيما بيـنهم و ٠٠٠ " الـرعايا المحلـيون " والـذين لا جنسـية لهـم ، يبحثون عن جوازات سفر لتؤمن حمايتهم في حالة المنازعات الدولية ، و المالطيــــــــون

( )

سيجندون في الجيش الإنجليزي و " الميتل أوروبيون " سوف يقسمون بين الدول الحليفة ودول الأعداء ، و العديد منهم قد لحق بالإيطاليين في معسكرات الاعتقال .

الإسكندرية ، لم تعد إسكندرية " ديريل - Durell " في الرباعية ، ولكنها إسكندرية "تسيركاس – Tsirkas " .. " مدينة يجرفها التيار " .. الناقوس يدق من أجل "الإسكندرية " و لم تفعل الحرب شيئاً إلا أنها قد أخرت الموعد عدة سنوات .. !

فالحرب كانت بمثابة اللحظة التي تفككت فيها هذه الطوائف الجماعية الأجنبية ، بعد أن عاشت حياة مرحة ، ورغدة و ثراء فاحشاً وتبذيراً جنونياً ...

وهكذا فموطن خيال و حقيقة الإسكندرية لم يبلغا مطلقاً أية ذروة ، الإسكندرية من عام ١٩٤٠ إلي عام ١٩٤٥ عاشت أجمل سنواتها المجنونة ، التي رسمها بإعجاز يوسف شاهين في فيلمه " إسكندرية ليه ؟ " !

أما الأجانب الذين يتمتعون ببعد نظر فاستعدوا للرحيل إلي " العالم الجديد " أو لأراضي ميعاد أخرى !! وأما ذوي الميول السياسية ، من بينهم من أيقنوا أن الإسكندرية حتماً سوف " تلحق " بمصر ! .. وأما اللامبالون فكانوا يأملون أن تظل الإسكندرية ، تلك المدينة ، على أهبة السفر إلي موطن الخيال !

وتغيرت الحالة النفسية الجماعية للطوائف ، وقلق الحياة الذي جلبه فقدان الهوية الجماعية ، أدى إلي البحث عن هوية أخرى ، ولكن أية هوية ؟ الإيطالية أم اليونانية ، وهذا يعني الهوية الوطنية ، الإنتماء إلي وطن ؟ والسؤال " من أكون " ؟ يتطلب العودة إلي الأصول ، ولكن بالنسبة لهؤلاء ، أجانب مصر والإسكندرية ، الذين فقدوا أصولهم في بؤس قراهم أو أحيائهم الفقيرة ، فقد غادروها دون حنين !

وبالنسبـة إلـي الأجيال التـي ولـدت فـي مصـر ، خاصـة فـي أحياء الإبـراهيمية أو سـيدي جابـر يـتحدثون مـع بعضـهم مـثلا باللغـة اليونانـية المصـرية ، بلهجاتهـا ، وبتعبيراتها التي " لا تترجم " ••• ! الإسكندرية : مجتمع مشرقي ؟ بكل تأكيد لا •••• إذن " إسكندرية ليـه " ليس من السهل تعريف ما حدث لهذه المدينة • فقد أقول بحذر ، حسـب العـرف ، إن الإسـكندرية كانـت التعبيـر الـتام عـن المواطـنة العالمـية (أي عالمـية المـواطن و طـريقة التفكيـر) الاقتصـادي و الثقافي و الاجتماعـي و الأخلاقـي ، الـناجم عن اختلاط الهويات الجماعية ، في حماية عن كل قومية أو فكر استعماري •

فـــي التاريخ المعاصر لعالم البحر الأبيض المتوسط ، الإسكندرية حالة منفردة •• لا يمكـن مقارنـتها بـأي حالـة مـن " الأندلسـيات المفقـودة " بالمغـرب ، و الـتي لا يمكـن أن تتحول إلي مدينة مستعمرة تخضع لسلطة أجنبية •

الإسكندرية كانـت مصـرية و جماعـية : فسيفسـائية اللغـات و الأديـان ، و مـدافن الشـاطبي تشـهد على كثرتهم ، وبالتجول في " مدينة الأموات " بالشـاطبي قديمـاً ـ ضـاحية قـريبة مـن الإسـكندرية ـ قـد يسـتطيع الأوروبـي أن يـدرس علـم الاجتماع ، و العقلية السكندرية ، فهي مسجلة على شواهد القبور !

وختـامـاً ، أريد أن أذكر أمـراً صـغيراً فـي إحدى دور السينما ، في الحي اللاتيني ، كـان يعرض فيلم يوسف شاهين " إسكندرية ليه ؟ " •• كان الجمهور متنوعاً : جزائريون ، ومغاربة وتوانسة ، و رعايا آخرون تابعون لدول عربية أخرى •••

أثـنـــاء العـرض ، تصـاعدت بـين الأربعـة أركـان لصـالة العـرض ، صـيحات تعجـــب ، وضـحكات و تصـفيق ، و لكن بصـفة عامـة ، كانت الصـالة تبدو غير مكترثة ، كما لو كان الجمهور يشاهد فيلماً مملاً أو غامضاً •• !

( )

وعندما أضيئت الأنوار ، فالذين كانوا يضحكون ويصفقون قد تعرفوا على بعضهم البعض : لقد كانوا من الإسكندرية !

أسطورة المدينة المتوسطية
١٨٣٠ - ١٩٣٠

البروفيسور " روبير البيرت " رئيس قسم التاريخ المعاصر للبحر المتوسط بجامعة بروفنس بفرنسا و مدير مركز الدراسات التاريخية المتوسطية المعاصرة (CEHMC) يقدم لنا في دراسته هذه ، صوراً من التفاعلات الحضارية لمجتمع الإسكندرية – المدينة المتوسطية – ولم يجنح للخيال ، بالرغم من جاذبيته ، في حديثه عن موطن الذكريات ٠٠ وما أعمق الشجن الذي ينبض في كلماته الصادقة المعبرة عن نشوة ذكرياته ٠٠٠ و ماض ساحر نسجته خيوط حلم رائع ٠٠٠

يقول روبير :-

هي كذلك الإسكندرية ، مثل بعض مدن العالم النادرة ، فلا يمكن أن نذهب إليها اليوم دون أن نتزود ببعض الذكريات ، و دون أن تتفاعل بداخلنا أحلام العظمة القديمة ٠٠٠ التي تتولد من ذكر اسمها – و صور لميناء عالمي زاخر ٠٠ منذ عصر الشاعر اليوناني " قنسطنطين كافافي (توفى ١٩٣٣) وحتى الكاتب المعاصر " نجيب محفوظ " ، دون أن تنسي ديريل DURRELL أو شيركاس TSIRKAS (مؤلف قصة مدينة يجرفها التيار) الإسكندرية ، اسكندريتنا الحديثة ، أنها المدينة ، توليفة لحظة مفارقات تلتقي في تعبير واحد : مدينة متوسطية ٠

ولكن ماذا يعني ذلك بالضبط ؟ أغنية الحنين إلي الماضي ٠٠٠ الإسكندرية ، في نفس الوقت ، مدينة ساحرة ومناضلة ، تاريخية و جديدة ، أجنبية ومصرية ، حدودية ومدخل ٠٠

---

* LE MIROIR EGYPTIEN : " L' IMAGINAIRE CREATEUR D' HISTOIRE : L' EGYPTE DE PHARAON AU SAINT - SIMONISME " MARSEILLE ; ١٩٨٤ ROBERT ILBERT : " ALEXANDRIE ١٨٣٠ - ١٩٣٠. LE MYTHE DE LA VILLE MEDITERRANEENNE ? " PP. ٦٩ - ٧٧ .

* نشرت هذه الدراسة بجريدة " أخبار الأدب " العدد ٨١ ، ٢٩ يناير ١٩٩٥

( )

وبتتبعهـــا علـى مدار المائة عام من عظمتها ، من عام ١٨٣٠ إلي عام ١٩٣٠ ، ربما نستطيع ، أو نحاول أن نلقي الضوء على هذه الفكرة المتوسطية ، وربما نحاول أن نحاصر حدود الأحلام !

موطن التخيـلات :-

ولأن الأمر يتعلق بحلم ، أو بتخيلات ، و أن المدينة تستسلم لنا ، أولا من خلال صورها أو على الأقل ، تلك الصور التي نقلها إلينا آخرون عن هذه المدينة ... بدءاً بالرحالة مروراً بالسائح حيث لا يوجد ما يراه ، إلا بعض الآثار المعزولة ، و متحف جميل ولكن أيضاً مدينة حيث يجب التوقف و التذوق ، تشعر فيها بشيء يذكرنا بمارسيليا أو بجنيس (GENES) بمينائها ولكن أيضاً بهندستها المعمارية التي تحي بأن الإنسان قد قام بجولة في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفـــــي نفس الوقت ، توجد الأسواق ، و الشوارع القديمة المقسمة إلي طرق غير نافذة .. تعلن عن الشرق ، هذه إذن مدينة ذات أصول عديدة ، و شعبها ملون ، و هي باب أغلق على الغرب و انفتح على الشرق ... ولكنها أيضاً " لقـــاء " ... ! تتحدث فيها أربعة أو خمسة لغات ، و تصدر فيها صحف بالفرنسية و بالإنجليزية وبالعربية وبالروسية وأيضاً باليونانية ، و بالإيطالية وتقريباً بالأرمنية و حتى باللادينو !

وتتـــــم اللقاءات خاصة على أرصفة المقاهي ، و في محلات الحلوى ، وأيضاً في الكازينوهات أو على الشاطيء (البلاج) .

بـــــلاج الرملـة الأنيـق .. هناك أيضاً البلاجات الشعبية حيث تتساوى الطبقات وحيث نستطيع أن نتخيل ألعـــاب " كامـوس " الشاب المتمصـر ، علـى شـاطـيء الأنفوشـــي !

( )

وهـــــذه اللقـــاءات تتولد عنهـا لقـاءات أخـرى ، و هـذه الصـور تعكس ثقافـة هؤلاء الذين يقومـون بعمليـة مسح للمدينة ، دليـل ، أو قصـائد شـعرية فـي متناول اليد ، وقـراء دليـل فـورستـر (Forster) أصبحوا و سيظلوا كثيرين ٠

نجــد فيها المدينة اليونانية تحت المدينة الحديثة ، و الطـريق الكانوبي ، تحت شـارع رشيد ، و الفنـار تحت قلعـة قايتبـاي و نعرف أن " قبـر الإسكندر تحت كنيسة النبـي دانيـال " و تعرف منها الأسوار العظيمة التي ترجع إلي العصر العربي ٠٠ وفي العصـور الوسطى كـان الرحالة الذين يتوقفوا بالإسكندرية لا يفوتهم الاستمتاع برؤية عمـود بومبـــي ٠

وصــــورة هذا الماضـي قد اختفت ، و نتداولها اليوم بحكايات نصفها حقيقـي ، ونصفها خيالي ٠٠ !

أنفــاق المدينة ذات الخزانات الضـخمـة ٠٠ سراديب الموتـى المتعددة ٠٠ إذا كانت مـن الماضـي اليونانـي ، فلم يبق شـيء يذكـر ، فمـوطن الخيال لـم يزل موجوداً فبأي شيء يزدهر ٠٠ !

كـــل ذلـك خلـق كوكبة مـن النجوم المتألقة أو العابسـة ، حيث يسـود الضـوء تمـامـــا ٠٠ لكن ذلـك لم يكن اللون الأزرق لأعراس البحر المتوسط ، لكنها سماء خانقة ، تتسم بالحنين إلـي الوطن ، موقع هاجمته الرياح ، رياح رواية نجيب محفوظ " ميرامار " أو السطحية المتوغلة فـي قصـيدة كافافي – Cavafy " المدينـة " والتـي يمكـن أن تحدثنا ببسـاطة عن الإسكندرية ولـن تجد بـلاداً جديدة ، و لـن تكتشـف شواطيء جديدة ٠٠ المدينة سوف تتبعك وسوف تزحف في نفس الشوارع ، وسيتقدم بك السن و أنت في نفس الأحياء، وسيشتعل رأسك شيباً و أنت في نفس المنازل ٠

اللـــون الأزرق في ذاكرة هؤلاء الذين رحلوا ، و لم يزل في كل مكان ، الصيف فـي العجمـي أو فـي سيدي بشـر ٠٠ و يظل الجو العـام مشبعاً بالحنين إلـي الماضـي ٠٠ استخدمه " نجيب محفوظ " كلوحة ديكور ، تلاعب فيها بكلمات وطنية !

ينطلـــق هنـا الفجـور علـى القصـور الخـادع و تنـزلق الرغبـة من البحـر تجـاه المنـازل المغلقـة و تجـاه الحـارات ، حيث يصطحب الشـاعر اليونـاني الفتيان – I phebes الذين يؤنسون لياليه !

هـــــذه الكوكبة المتألقـة من الصور تنسج خيوط حلم رائع ٠٠ و لكنها تشهد أيضاً علـى شـيء آخر ، مهما يكن ما يشعر به ساكن المدينة الحالي ، فهي تدل على وجود المدينة التـي تفرض عليه بـلا اكتـراث ٠٠ المهم إننـا نجد فيها كل مـا يعمـق التفاعلات الحضارية والاتجاه نحو المدينة الحديثة، إذن هذا هو ما يجب أن نفهمه ٠٠ !

كيـف تسنـى إلـي هذه المدينـة أن تصبح رمـزاً هكــذا ؟ ...

كيـــف لهــذه المدينة ، و التي خلقت من حوالي قرن من الزمان تقريباً ، استطاعت أن تتزود بقلب يخفق بأجيال من الرجال و النساء ، و استمرت في إحياء مركز ظل صامداً بكل إصرار و عزم ؟!

المدينـة الجديـدة :-

هـــــذه المدينة ، لأنهـا جديدة ، لم يكتب عنها تاريخ حقيقي ، فلنذكر علـى الأقل ، أنـه فـي عـام ١٧٩٨ ٠٠ فـي نفس اللحظة التي استقرت فيها الفرق الفرنسية أمام الميناء ، لم يكن المشـهد العـام يتجـاوز ضـيعات تكمـن بين جزيرة فاروس Pharos والتي أصبحت شبه جزيـرة ، و أطـلال الأسوار العربية ، حيث لم يتبق سـوى قرى معزولة في كوم الشقافة أو في باب رشيد ٠

( )

ومـــــع السبعة آلاف نسمة ، سكانها ، تركت ذكرى مريرة لجنود بونابرت : ضحايا الأسطورة الأغريقية و بعض مضي عدة سنوات ، أعاد شمبليون الكرة ، كتب قائلاً " جميع الأوصاف التي يمكن أن نقرأها ٠٠ قد لا تعطي أي فكرة عنها ٠٠ أنه وجود حقيقي للنقائض ، و نجد أنفسنا فجأة في عالم جديد ٠٠٠ ممرات ضيقة ، تحدها حوانيت صغيرة ، مزدحمة بالناس من كل لون ، و كلاب ضالة ، وإبل مربوطة ببعضها كالمسبحة ٠٠ وصيحات مبحوحة مختلطة بأصوات النساء ، و أطفال نصف عرايا ، و أتربة خانقة ، ومن هنا ، و من هناك ، سيد أنيق ٠٠ هذا ما نسميه شارع من شوارع الإسكندرية " !

وفي الواقع ، أنها قد تخلت عن أسوارها المشيدة منذ بضعة قرون ٠٠٠

وصفـــت صحيفة (Le Moniteur Egyptien) بتاريخ ٥ أكتوبر عام ١٨٣١ هذه المنطقة ، من المدينة العربية القديمة ٠٠ " لا تقدم اليوم إلا أرضاً صناعية ، قابلة للتفتت ، تربة كلسية ، التي تغذي بعض النباتات بصعوبة و بعض النخيل النادر " إذن ، فهنا تماماً ستقام المدينة الحديثة ٠٠ على حدود مدينة القرن الثامن عشر التي صمدت على الأرض الرخوة من الهيبتاستوديوم القديمة ٠٠ و بين هذين التاريخين ١٨٢٩ ، ١٨٨٠ أبدع محمد علي و خلفائـه المدينة ، بين البحر و بحيرة مريوط ، مريوطيه " هادريان – Hadrien " و " سترابون – Strabon " و لكنها أيضاً " لصيد البط " لـ " ديريل " !

ولنتعــرف إلي بعض الأرقام : ثمانية آلاف نسمة ، يذكرها " سافـاري – Savary " في عام ١٧٧٧ ٠٠ و ستة آلاف لـ " جراتيان لوبيـر – Gratien le pere " في عـام ١٨٠١ ، لم يكن هناك إلا ساحة حرب ٠٠

ولكـــن المدينــة وصلت بسكانها إلي مائتي ألف نسمة عام ١٨٧٧ ، وفي عـام ١٨٩٧ بلغـوا ٣٢٠ ألف نسمة ، و في عام ١٩١٧ كانوا ٤٤٧ ألف نسمة ، ثم أكثر من ٥٧٣ ألف نسمة في عام ١٩٢٧ م ٠

( )

وقـــــد قام " محمـد علـي " و خلفاؤه بحركة عمران و تصنيع شملت المدينـــة كلهـا ، خصص لها " علي مبارك " الجزء الأكبر من المجلد السابع من " الخطط التوفيقية " ٠

استطاعت المدينة الحديثة أن تشكل نفسها ، كتب " اكزافيه مارميه – xavier Marmier " أن " كل ما يأخذ بالألباب في الحياة الأوروبية نجده هنا ٠٠٠ " !

بينمـــا " ايبرس – Ebers " اصابته الدهشة عندما شاهد بعض الأبـل فـي الإسكندرية ٠٠ !! وعند بلوغ حركة الإصلاح و التجميل ذروتها احتدم النقاش حول هوية المدينة و انتمائها ؟ جدل قديم ٠٠ يذكر " لاتور – Latour " إن الإسكندرية بالتأكيد ليست مدينة أوروبية ٠٠ غير أن أهل القاهرة يأبون أن يروا فيها مدينة مصرية ٠٠ !

ويشهـــد جمـال الإسكندريـة وسحرها الخاص على أنها تضم مجتمعـًا ، ليس كمجتمع مصر الإسلامية ، الذي تعد القاهرة " زهرة مدائنـة " ٠

وإلـــي عهد إسماعيل " رجل قناة السويس والقروض التي أعطت للاحتلال الإنجليزي شرعيته " ! يعود الفضل في البناء الحالي للمدينة و تحديثها ٠٠ حيث تم ترميم الأسوار القديمة ، و انتقل وسط المدينة إلى أطلال المدينة اليونانية البائدة ، التي شيدت في المنطقة المعروفة باسم " بيلوبونيز – Peloponnese " ٠

وفـــي الغـرب ، نحو القباري و المكس ، أنشـــيء ميناء كبير و في الشرق ، بـدأ العمل في إثنين من الأحيـاء الراقية : أولاً الرملـة ، ثم الإبراهيميـة ٠

( )

والسنوات التالية ، لم تشهد إلا تخصيص مساحات للبنـاء ، خاصة في كوم الشقافة ، و غزو للشاطيء ، و تصنيع القباري والمكس ، حيث حل حجر صحي جديد محل القديم الذي أنشأه " كوست " في الشرق ٠

هـــذه الحركة ، كان لها أثرها بسرعة إنجازها القصوى ، وحجمها الكبير ٠٠ ولا مجال لشرحها هنا ، ولكن من الواضح أن التطور لم يغير وجه المدينة فقط ، و لكنه أوجد مجالات جديدة للعمل ٠٠ في الواقع كانت الإسكندرية بالنسبة لمحمد علي الواجهة البحرية لقوة غازية و مقراً لترسانته فوضع نصب عينيه ثلاث متطلبات :

(١) الميناء و تجديد وتقوية الحصون القديمة ٠

(٢) الأجانب الذين استقبلوا كمحركات لعملية التحديث و معهم حي الجنوب الشرقي ٠

(٣) السلطة السياسية ، و معها رأس التين و قصر سعيد باشا في القباري ٠

أبـــان عملية التغيير الحضاري الشامل ، و على وجه التحديد ، بداية من عام ١٨٦٥ أنتقل تشييد القصور و الفيلات نحو سان ستيفانو في الشرق ثم المنتزه ٠٠ و أتسع الميناء و سحب معه كل غرب المدينة ٠

وأصبـــح الحي العربي ، أحد أحياء الميناء القديمة ، كميناء مرسيليا قبل الحرب العالمية الثانية ٠

أمـــا بالنسبة للحي الأوروبي ، فقد أحتوى المظاهر المدنية الحديثة ، مع بورصة القطن و الكنائس و أيضاً المقاهي ، و محلات الحلوى ، و المطاعم و الفنادق ، والمسارح (في المقدمة : مسرح زيزينيا) ثم بعد ذلك دور السينما ٠٠ إذن فالأمر يتعلق بمدينة ذات طراز أوروبي ، مع حلول بداية عام ١٩١٥ ، مدينة مصرية جعلت المصريين مجرد " ديكور " فحسب ٠٠ ! على الأقل ، ذلك الإنفجار الذي حدث عام ١٨٨٢ عندما انهمرت قذائف القصف البريطاني " المشروع " ! و غضبة شعب حطم المحلات ، وأحرق الفيلات ٠٠ !

( )

مـدينـــة مستعمرة ، لا تريد أن ترى نفسها على ما هي عليه ، و لكن الوضع العام يحدثنا عنها من حيث توزيع الكثافات مع ثلاثين إلي أربعين مالك في الهكتار في حي الميناء، واثنين إلي ستة من الملاك نحو الجنوب الشرقي ، في الأحياء الراقية ٠

ولا غـــرو أن كان هناك تباين في الطرز المعمارية المختلفة للمساكن ، من المنازل التركية بالأنفوشي إلي العمارات الأوروبية التابعة لشركة " لوبـــون " و شارع رشيد ، أو المساحات الصغيرة التي خصصت لصغار الموظفين و العمال الأرمن بكوم الشقافة ٠٠ و يوجد أيضاً تعارضات في تخطيط المدينة ، خاصة بالنسبة للحارات و الطرقات الواسعة التي حددتها لجنة الأراضي بالمجلس البلدي مع ما تم تخطيطه و تحديده من الأوقاف !

التضاد بين الجلباب والجاكت !

ونشـــــأ تضـاد بـين المديـنة ، و المســاجد والمقاهـي ، كالتضـاد بـين الجلـباب والجاكـــت ! ٠٠ وهذا التباين أو التضاد كان واضحاً بين الطوائف العرقية : حي عربي "تيجرو " كما كتب ديريل ، و حي أرمني ، و حي يوناني ، إلخ ٠٠ فضلاً عن ذلك ، وبالرغم من هذه الأمور المتضادة يمكننا أن نحدد العصر الذهبي للمدينة الحديثة ، أو أوج عظمتها ما بين عام ١٨٣٠ ، و عام ١٩٣٠ ، أكثر تحديداً ما بين طموحات محمد علي والسنوات ستة و ثلاثون و سبعة وثلاثون (المعاهدة الإنجليزية – المصرية و اتفاقية مونترو – Montreux) ٠٠ أي ما بين الانفتاح الأول على أوروبا ، ونهاية الامتيازات الأجنبية ٠٠ !

فـــــي الواقـــع ، أن مصير هذه المدينة قد ارتبط بمصائر الطوائف اليونانية ، والإيطالـــية ، و المشـــرقيـة ، إلـــي جانـــب الـــيهود وبورجـــوازيه " الكومبـــرادور – Comprdores "

( )

هــــذه الطوائف التي أقيمت كياناتها على الهبات الممنوحة من الولاة والأمـــراء ، هبات تمنح مقابل خدمات أو لمجرد الإعجـاب ٠٠ ! مثل : " ايتيان زيزنيـا - Et. Zizinia " الذي وهبه محمد علي باشا : مائتي هكتـار !

يمكنـنـا أيضـا ، قـراءة تـاريخ المدينة ، من خلال استعراض الصـراعات المتوسطية في القرن التاسع عشر ٠٠ الحروب اليونانية ٠٠ انتفاضات الإمبراطورية العثمانيـة ٠٠٠٠

وأيضـاً من خلال تمايز بعض الشخصيات الشهيرة : يونانية غالباً ، وإيطالية ٠٠ صعود " توسيزا – Tossizza " وعائلته ، كأول جيل من المهاجرين ، ثم : بيناكي – Benachi وسينادينى Sinadini و سلفاجـوس - Salvagos وغيرهم ٠٠

مدينـة إنتقـائيــة :-

هــؤلاء الرجال أسهموا في تطور المدينة ، وجعلوا منها مدينة متوسطية ٠٠ ومع التسليم بأنهم أجانب ، لا تربطهم بأوطانهم إلا روابط شكلية ، فهم أيضاً ، قد شيدوا بمصر صناعات حقيقية ، لم تتوقف أنشطتهم سواء في مجال تجارة الميناء ، أو في بورصة القطـن ، فمن جهة ، قد أقاموا مجتمعات صناعية هامة ، مثل صناعة الدباغة ، و المطابع، و شركات البناء ٠٠ ومن جهة أخرى ، فقد استثمروا جزءاً كبيراً من ثرواتهم في هذا المجـال ، حيث قامت حركة أعمال غاية في النشاط ، في مجال البناء أكثر منها في مجـال التجـارة ٠

ومـــن المؤكد أن الإسكندرية قدمت الخدمات الأساسية بشبكة من التجار الذين يعملون في مختلف القرى المصرية ٠٠ و لكن السوق الذي كانت تقدمه المدينة كان في حد ذاته كبير الأهمية ٠

( )

إذن مدينة مستعمرة ، بكل تأكيد ، و لكنا لا نستطيع بصـورة كايكاتورية أن نقول ذلـك ، فالمصائر الفردية ترتكز على المصير الجماعي ٠

فالسبـل التي يسلكها بعض الرجال توضح لنا مصير مدينة كاملة ، صنعوا لها مفاتيح التحضر و الرخاء ، جاعلين منها عالم صغير ، تحكمه قوانينه الخاصة ٠٠ قوانين اجتماعية ، و مادية ، مع جهاز من نبلاء المدينة البارزين ، مثل : الكونت دي منشه – De Menasce والبارون زغيب – Zogheb ٠٠ شبكة من عائلات تحكمها نظم معقدة ، تتوزع فيما بينها المكاسب و النفوذ ٠٠ !

لكنهـــا أيضاً مدينة ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، بمجلسها البلدي المدهش ، حيث لا تستطيع أي جنسية أن تحصل على أكثر من ثلاثة مقاعد يمثلونها ، و الذي يؤكد سلطة حقيقية منتخبة تسوس المدينة في أدق التفصيلات ٠٠ وتلك هي الظاهرة التي – بدون شـك – تنفرد بها و التي تسمـح بأن تجعل الإسكندرية مختلفة عن أي مجتمع مصري آخر ، بشخصيتها المتميزة ٠٠ و أكثر من ذلك أنه في هذه البوتقة تم تحضير ثقافة صنعت من إلتقاء اللغات والأديان ٠

هنـــا تكمن أصـالـة الإسكندرية و عراقتها ٠٠ وذلك بكل بساطة لم يكن نتيجة لعالمية الفكر و المواطن بل أعمق من ذلك بكثير ٠٠٠

ومـــن شارع فرنسا ، حتى سوق العطارين ، و من الغرب إلي الشرق ، و من المكس إلي الرمله ، أشكال للاتصالات ٠٠ حتى لو لم يستطع الجلباب أن يتجاوز مكانة القنصـل ٠٠ ! إذن فهو التحضر ، دون أن نبلغ تحقيق التوفيق بين المذاهب ٠٠ هذا المبدأ المثالي الذي طالما كان حلم القرن الثاني : " الانتقائية – Eclectisme " بكل ما تحتويه الكلمة من معان ٠٠ هذا ما تحدثنا عنه فنون العمارة المتألقة ، حتى أنك لتجد فيها ذوق

رفيع ، شاليهات الرملة ذات الأسقف المنحدرة ، و بنك دي روما ، الذي بناه الإيطالي " جورا – Gorra " على طراز قصر " فارنيز – Farnese " وحتى قصر " موريسك – Moresque " للأمير إبراهيم أو الكنيسة " الرومانية " التي تخص الطائفة الكاثوليكية الرومانية ، و كانت من طراز فوضوي إلا أنها تعطي للنظرة الإيطالية أو الفرنسية ، شعوراً بالوحدة ٠

إذن فهي وحدة تتجاوز المتناقضات ٠٠ فنحن أبعد ما يكون عن المدينة الاستعمارية ، و " التمييزيه " حسب فكر " ليوتي – Lyautey " أو " بروست – Prost" في المغرب ٠٠ مبتعدين أيضاً عن بورجوازية البورصة و القطن بعداً تاماً عما أرادوا أن يصفوه !

هؤلاء اليونانيون و الإيطاليون و المشرقيون (باستثناء الفرنسيين والنمساويين ونادراً جداً الإنجليز) قد انصهروا في طائفة واحدة ، بالإضافة إلي السوريين و اللبنانيين ، واليهود من الرعايا المحليين ، الذين أجبروا على الهجرة فيما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦١ م ٠

وقد أدى ذلك أيضاً إلي تشكيل القوى في مصر الحديثة ، فالحزب الشيوعي المصري لم يتسنى له الميلاد إلا هنا ، و مصيره الممزق و المحطم ، هو صورة مما آل إليه كثير من جوانب هذا المجتمع ٠

تفكك الوضع :-

من الإسكندرية خرج عبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية ، ومنها أيضاً خرج جمال عبد الناصر ٠٠ و العشرات من أعلام الفكر و الفن ٠٠ ويرى البعض أنها لم تتواءم مع مصر ٠٠ لكنها فقط تواءمت مع البحر ٠٠ !

( )

فـــــي السنوات التي أعقبت عام ١٩٣٠ اتجهت المدينـة نحو الانغـــلاق علـى نفسـها ، وهـــي التـــي تأثرت كثيراً بالعادات و التقاليد الأوروبية ، كانت تجهل تصاعد المخاطـر ، و تخفي حذرها في مواجهة انتهاء الامتيازات الأجنبية التي أعلنت عن إلغاء المحاكم المختلطة عام ١٩٤٠ م ٠

حينـئـــــذ رفضـت الطائفـة اليهودية – وهـي أيضـاً كـان لهـا أثـر فـي تشـكيل الإسكندريـــة – أن تضع في حسابها أن مصيرها قد انتهـــى ٠

مـــــن الإسكندرية أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس ، قد يكون " سخرية من التاريخ " ٠٠ ! ومن الإسكندرية أيضاً تابع وضـع " الأموال الأوروبية " تحت الحراسة وأصبح الأمر يتعلق بإغلاق الباب وإعادة الميناء إلي البلد ، و قطعه عن البحر !!

فـي هـذه الظروف ، لـم تكـــن المدينـــة خياليـــة
ولكـن يمكنهـا أن تصبح أسطورة البحر المتوســط !

ربمـــا لم تكن هـذه المدينـة في النهاية إلا حادثاً ، أو زمنـاً معلقاً ، و إذا كانت الإسكندريـة قـد استطاعـت أن تكـون " المدينـــة " فلأنهـــا كـانـت تمثـل هذه اللحظـة الخاصـــة ، حيـث كان البحـر و الميناء لا يمثـلان إلا شيئـاً واحــداً ٠

وإذا كـــان جمالهـا يحدثنـا عن مرسيليا أو عـن جينيس – Genes ، فذلـك بـدون شـــك – لأن المدينة المتوسطية لـم تكن تمامـاً مسـألة فن بنـاء ، إنهـا مسـألة اجتماعيـة ، واقتصاديـة و سياسية ٠٠ إنهـا زمن إنقضى من التاريخ ٠٠

( )

مـدينـــــة الزمن المفقود الــذي خبـا نـوره ببــطء ، مثــل تلك العائلات اليونانية التي اختفت الـواحدة تلـو الأخرى ، مخلفين وراءهم ذكرياتهم في علب من الكرتون عند تجــــار " الانتيكـــات " ٠٠ فالأسطورة السكندرية ، لم تعد اليوم سوى ذكرى ٠٠ !

Bibliographie

1. Bernand, A.: Alexandrie des ptolemees, CNRS editions, 1982.
2. Breccia, E.: Guide de la Ville et du musee d'Alexandrie, Alexandrie, 1910.
3. Denon, V.: Voyage dans la Basse et la Haute – Egypte,paris,An xi, 1803.
4. Ebers, G.: L'Egypte,Alexandrie et le Caire (trad franc. G.Maspero) Paris, 1880.
5. Empereur, J.y.: Alexandria,past,present,future,London,Gallimard, 2002.
6. Fahmy, M.: Alexandrie en 1897,Alexandrie.
7. Haag, M.: Alexandria, city of memory, The American university in Cairo press, 2004.
8. Hunter, F.: Egypt under the Khedives, pittsbugh, 1984.
9. Ilbert, R.: Alexandrie 1830-1930,2 vols, Bibliotheque d'Etude 112,ifao, le Caire, 1996.
10. Jondet, G.: Atlas historique de la ville et des ports d'Alexandrie, le Caire,1921.
11. Malaval, B., Jondent, G.: Le port d'Alexandrie, Le Caire, 1912.
12. Mantbard: en Egypte, Paris, 1906.
13. Morsi Saad El Din, G. Mokhtar, M. El Abbadi, A. Ramadan: Alexandria, the site a the History, Ed Gareth L.steen, New York univ. press, 1993.
14. Suard, A.: Alexandrie ancienne et nouvelle, Alexandrie, 1899.
15. Vaujany, H.: Alexandrie et la Basse-Egypte, Paris, 1885.
16. Yan nakakis, I.: Alexandrie societe Levantine? Le miroir Egyption, Marseille, 1984.

فهرس الموضوعات